رواية

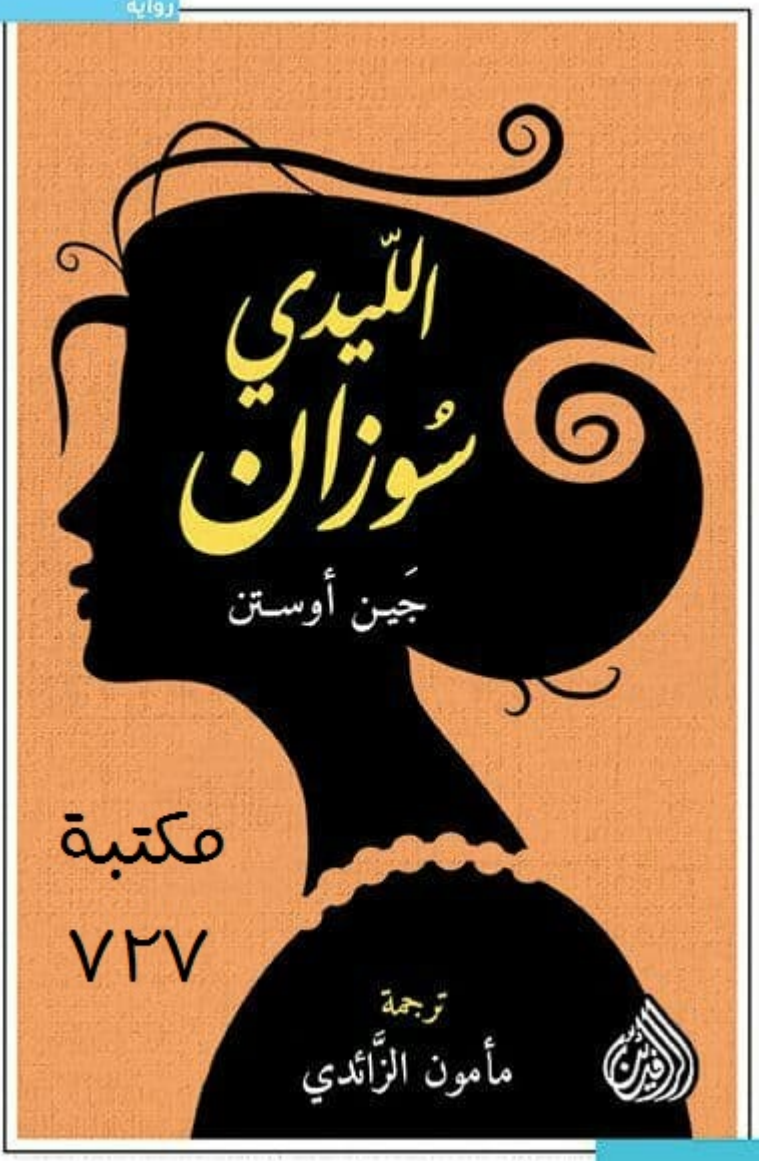

الليدي سوزان

جين أوستن

دار الرافدين

مكتبة ٧٢٧
Telegram @t_pdf

كلمة الغلاف

الرِّوايةُ النَّائمة. هذا ما تُوصَف به روايةُ "اللِّيدي سوزان" لجين أوستن، ذلك أنَّها لم تُنشَر إلَّا بعد مرور أكثر من 50 عامًا على وفاتها، مع أنَّها كُتِبَتْ – وفقًا لتقدير النُّقَّاد والدَّارسين – عندما كانت الكاتبة في الثَّامنة عشرة من عمرها وتمثِّل محاولاتها الأولى في الكتابة. وتختلف هذه الرِّواية عن سائر روايات أوستن من ناحيتين. أوَّلًا، أنَّها روايةٌ رسائليَّةٌ، بمعنى أنَّها مكتوبةٌ على شكل سلسلةٍ من الرَّسائل تتعدَّد فيها الأصوات السَّرديَّة. وثانيًا، أنَّ الشَّخصيَّة الرَّئيسة، اللِّيدي سوزان، تستمدُّ سحرَها من كونها شخصيَّةً استفزازيَّةً وغير محبوبةٍ، على عكس الشَّخصيَّات الرَّئيسة في أعمال أوستن الأخرى. إنَّها قطعةٌ أدبيَّةٌ ساحرةٌ وممتعةٌ للغاية تكشف عن فهم الكاتبة المبكِّر للمكائد الاجتماعيَّة وعن براعةٍ مبكِّرةٍ في بناء الحبكةِ القصصيَّة. فهي، وإن كانت أقلَّ أعمالها نضجًا، إلَّا أنَّها تبقى في رأي النُّقَّاد جوهرةً لامعةً تنضحُ بالدَّهاء والفُكاهة وبخبثٍ لعوبٍ يأسرُ اللُّبَّ.

(1)

من اللّيدي سوزان فيرنن إلى السَّيِّد فيرنن

لانغفورد، ديسمبر

نسيبي العزيز،

لم يعد بإمكاني حرمان نفسي متعةَ اغتنامِ الدَّعوة الكريمة التي وجَّهتها إليَّ، حين افترقنا آخر مرَّةٍ، لقضاء بضعة أسابيع معك في تشرشِل، ولذا، أتساءل إن كان مناسبًا لك وللسَّيِّدة فيرنن استقبالي قريبًا، وآمل في غضون أيَّامٍ قليلةٍ أن أتعرَّف إلى أختٍ لطالما رغبتُ في التَّعرُّف إليها. أصدقائي الطَّيِّبون هنا هم الأكثر إلحاحًا عليَّ لإطالة مدَّة إقامتي بينهم، ولكنَّ تصرُّفاتهم المضيافة والمبهجة تقودهم إلى الالتقاء والاحتفال أكثر ممَّا يحتمله وضعي الحاليُّ وحالتي النَّفسيَّة؛ وإنَّني أتطلَّع بفارغ الصَّبر إلى السَّاعة التي أدخل فيها بيتك المبهج.

أتوق إلى اللَّحظة التي تعرِّفني فيها بأطفالك الصِّغار الأعزَّاء الذين سأكون في قلوبهم متلهِّفةً للغاية إلى نيل اهتمامٍ سأكون قريبًا في أمسِّ الحاجة إليه لأحافظ على كلِّ ثباتي وجَلَدي، ذلك أنَّني على وشك الانفصال عن ابنتي التي منعني

المرضُ الطَّويلُ لوالدها العزيز من إيلائها الاهتمام الذي يمليه عليَّ الواجب والمحبَّة بالقدر نفسه، ولديَّ الكثير من الأسباب للخوف من أنَّ المربِّية التي أوكلتُ إليها مهمَّة رعايتها لم تكن على قدر المسؤوليَّة. ولذلك قرَّرتُ أن أضعها في واحدةٍ من أفضل المدارس الخاصَّة في المدينة، حيث ستتاح لي الفرصة لإيصالها بنفسي وأنا في طريقي إليك. إنَّني مصمِّمةٌ، كما ترى، على عدم حرمان نفسي من القدوم إلى تشرشِل. ومن المؤكَّد أنَّه سيكون من المؤلم جدًّا لي إنْ عرفتُ أنَّه ليس في وسعكَ استضافتي.

أختك الأكثر امتنانًا وعاطفةً،

س. فيرنن

Telegram @t_pdf

(2)

من اللّيدي سوزان فيرنن إلى السَّيِّدة جونسون

لانغفورد

لقد كنتِ مخطئةً، يا عزيزتي أليسيا، في افتراضكِ أنِّي سأمكث في هذا المكان لبقيَّة الشِّتاء: يحزنني أن أقول لك كم أنت مخطئةٌ، لأنِّي نادرًا ما قضيت ثلاثة أشهرٍ أكثر لطفًا من تلك التي انقضت لتوِّها. في الوقت الحاضر، لا شيء يسير بسلاسةٍ؛ إناث الأسرة متَّحداتٌ ضدِّي. لقد تنبَّأتِ بما سيكون عليه الحال حين جئتُ إلى لانغفورد لأوَّل مرَّةٍ. وجدتُ آل مينوارنغ ممتعين بشكلٍ غير مألوفٍ لدرجة أنَّني لم أكن بدون مخاوف من نفسي. أتذكَّر أنَّني قلت لنفسي، بينما كنتُ في العربة إلى المنزل، «أحبُّ هذا الرَّجل، وأدعو الله ألَّا يقع أيُّ ضرر»!، ولكنَّني كنت مصمِّمةً على أن أبقى متحفِّظةً وأضع في اعتباري أنَّني أرملةٌ منذ أربعة أشهرٍ فحسب، وأن أكون هادئةً قدرَ المستطاع: وقد كنت كذلك، يا عزيزتي. لم أعر أحدًا اهتمامًا سوى آلِ مينوارنغ. لقد تجنَّبت كلَّ المغازلات عمومًا أيًّا كانت؛ ولم أحفل كذلك بأحدٍ من جميع النَّاس الذين يأتون إلى هنا، باستثناء السِّير جيمس مارتن الذي أوليته بعض الاهتمام بغيةَ إبعاده عن الآنسة مينوارنغ؛ ولكن، لو عرف العالمُ دافعي وراء ذلك لقدَّرني. لقد وُصفتُ بأنِّي أمٌّ

قاسيةٌ، ولكنَّه كان دافعَ عاطفة الأمومة المقدَّس، ونعمةَ وجود ابنتي، ما أخذ بيدي؛ ولو لم تكن تلك الابنة أعظم الحمقاوات على وجه الأرض، لكنت كوفئت ربَّما على جهودي كما ينبغي.

تقدَّم إليَّ السِّير جيمس طالباً الزَّواج بفريديريكا. ولكنَّ فريدريكا، التي وُلِدت لتكون عذاب حياتي، اختارت أن تقف بقوَّةٍ ضدَّ هذا الاتِّفاق لدرجة أنِّي فكَّرتُ أنَّ من الأفضل التَّخلِّي عن هذه الخطَّة في الوقت الحاضر. لقد ندمتُ أكثر من مرَّةٍ على أنَّني لم أتزوَّجه بنفسي. ولو أنَّه كان ضعيفًا بدرجةٍ أقلَّ إثارةً للاحتقار، لفعلت بالتَّأكيد: وإن كنتُ أجد نفسي رومانسيَّةً إلى حدٍّ ما في هذا الصَّدد، والثَّروة وحدها لا ترضيني. مثيرٌ للغاية كلُّ ما حدث: لقد ذهب السِّير جيمس، وماريًّا غاضبةٌ للغاية، واللّيدي مينوارنغ غيورةٌ بشكلٍ لا يطاق؛ غيورةٌ جدًّا، وباختصارٍ، حانقةٌ جدًّا عليَّ، لدرجة أنَّني، في فورة غضبها، لن أتفاجأ من لجوئها إلى مناشدة راعيها، إن أتيحت لها حرِّيَّة مخاطبته: ولكنَّ زوجك يقف هناك يا صديقتي؛ وكان أطيب وأروع عملٍ قام به في حياته هو تركها وشأنها إلى الأبد بعد زواجها. حافظي على استيائه؛ إنَّني أحملكِ على ذلك. نحن الآن في حالةٍ حزينةٍ. لم يتغيَّر بيتٌ قَطُّ أكثر ممَّا تغيَّر هذا البيت. الجماعة كلُّها في حالة حربٍ، ونادرًا ما يجرؤ آل مينوارنغ على التَّحدُّث معي. حان الوقت كي أرحل. ولذلك قرَّرت أن أتركهم وأن أقضي يومًا مريحًا معكِ في المدينة خلال هذا الأسبوع. وإن كان السَّيِّد جونسون أقلَّ رغبةً في رؤيتي من ذي قبل، فعليكِ أن تأتي إليَّ في 10

شارع ويغمور؛ ولكنِّي آمل ألا يكون هذا هو الحال، لأنَّ السَّيِّد جونسون، مع كلِّ أخطائه، هو الرَّجل الذي تُمنح له دائمًا كلمة «محترم» العظيمة، وأنا معروفةٌ تمامًا بأنَّني على صداقةٍ حميمةٍ جدًّا مع زوجته، واستخفافه بي أمرٌ مُحرجٌ للغاية.

أفكِّر في لندن وأنا في طريقي إلى تلك البقعة البائسة، وهي قريةٌ ريفيَّةٌ؛ فأنا ذاهبةٌ حقًّا إلى تشرشِل. اغفري لي يا صديقتي العزيزة، إنَّها ملجأي الأخير. ولو توفَّر لي مكانٌ آخر في إنجلترا، لكنت فضَّلته عليها. فتشارلز فيرنن هو أبغض الأشخاص إليَّ. وأنا أخاف زوجته. ومع ذلك، يجب أن أبقى في تشرشِل حتى يُعرَض عليَّ ما هو أفضل. ترافقني ابنتي الشَّابَّة إلى المدينة، حيث سأُوْدِعُها في رعاية الآنسة سمرز، في شارع ويغمور، إلى أن تصبح أكثر تعقُّلًا. ستقيم علاقاتٍ جيِّدةً هناك، حيث الفتياتُ جميعهنَّ من أفضل العائلات. الكلفةُ باهظةٌ، وأبعد بكثيرٍ ممَّا يمكنني محاولة دفعه.

وداعًا، سأرسل لك خطِّيًّا بمجرَّد وصولي إلى المدينة.

المخلصةُ لك دومًا،

س. فيرنن

(3)

من السَّيِّدة فيرنن إلى اللّيدي دي كورسي

تشرشِل

أمِّي العزيزة ـ يؤسفني أن أخبرك أنَّه لن يكون في وسعنا الحفاظ على وعدنا بقضاء عيد الميلاد معك؛ وقد منعَنا هذه السَّعادةَ ظرفٌ من غير المحتمل أن يسمح لنا بأيِّ تعديل. فلقد أعلنت اللّيدي سوزان، في رسالةٍ إلى زوجي، عزمها على زيارتنا على الفور تقريبًا؛ وعلى هذا النَّحو، لما كانت هذه الزِّيارة على الأرجح مجرَّدَ مسألة راحةٍ، فإنَّ من المستحيل تخمين طولها. لم أكن مستعدَّةً بأيِّ حالٍ من الأحوال لمثل هذا الحدث، ولا يمكنني الآن تفسير لياقة سلوكها؛ بدت لانغفورد المكان المناسب لها تمامًا من جميع النَّواحي، سواءٌ من حيث أسلوب المعيشة الأنيق والمكلف هناك، أو من حيث تعلُّقها الخاصِّ بالسَّيِّد مينوارنغ لدرجة أنَّني كنتُ أبعد ما يكون عن توقُّع تبدُّلٍ سريعٍ كهذا، مع أنَّني تخيَّلت دائمًا من صداقتها المتزايدة لنا منذ وفاة زوجها أنَّنا سنكون مضطرِّين، في فترةٍ ما في المستقبل، إلى استقبالها. أظنُّ أنَّ السَّيِّد فيرنن كان لطيفًا جدًّا معها عندما كان في ستافوردشر. وكان سلوكها تجاهه، بغضِّ النَّظر عن شخصيَّتها العامَّة، مخادعًا وحقيرًا على نحوٍ لا يُغتفَر، ومنذ زواجنا كانت في حالةٍ من الغيظ لدرجة

أنَّه ليس هناك شخصٌ أقلُّ منه ودًّا ورقَّةً يمكنه أن يتغاضى عن كلِّ ذلك؛ ومع أنَّها، وهي أرملة شقيقه، تمرُّ بظروفٍ صعبةٍ، وكان من المناسب تقديم مساعدته الماليَّة لها، لا يسعني إلَّا التَّفكير في أنَّ دعوته الملحَّة لها لزيارتنا في تشرشِل أمرٌ غير ضروريٍّ تمامًا. ومع ذلك، لكونه مجبولًا، كما هو حاله دائمًا، على التَّفكير فيما هو أفضل للجميع، كان إظهارها الحزنَ وكلمات التَّحسُّر والتَّصريحات النَّابهة كافيًا لتليين قلبه وجعله يثق بصدقها؛ ولكن، بالنِّسبة إليَّ، أظلُّ غير مقتنعةٍ، ومن البديهيِّ بعد ما كتبته سمؤُها الآن، أنَّه لن يمكنني أن أحسم أمري حتى أفهم بشكلٍ أفضل غايتها الحقيقيَّةَ من القدوم إلينا. لعلَّكِ تخمِّنين، إذن، سيِّدتي العزيزة، ماهيَّة المشاعر التي تعتريني مع اقتراب وصولها. ستتاح لها الفرصة لإظهار كلِّ تلك القوى السَّاحرة التي عُرِفَتْ بها لتكسب أيَّ جزءٍ من تقديري. وسأحاول بالتَّأكيد حماية نفسي من تأثيرها، إن لم يكن من شيءٍ أكبر. إنَّها تعبِّر عن رغبةٍ شديدةٍ في التَّعرُّف إليَّ، وتذكر أطفالي بلطفٍ شديدٍ، ولكنَّني لست ساذجةً بما يكفي لأفترض أنَّ امرأةً تصرَّفت دون اهتمامٍ، إن لم يكن بقسوةٍ، مع ابنتها، يمكن لها أن تتعلَّق بأيِّ طفلٍ من أطفالي. ستوضع الآنسة فيرنن في مدرسة في لندن قبل أن تأتي والدتها إلينا، وأنا سعيدةٌ بهذا، لأجلها ولأجلي. لا بدَّ وأنَّ من مصلحتها أن تنفصل عن والدتها، إذ لا يمكن لفتاةٍ في السَّادسة عشرة من العمر، تلقَّت تعليمًا بائسًا جدًّا، أن تكون رفيقةً مرغوبةً جدًّا هنا. لطالما رغب ريجينالد في رؤية اللّيدي سوزان الآسرة، وسوف نعوِّل على انضمامه إلينا قريبًا. أنا سعيدةٌ لسماع أنَّ والدي ما يزال بخير.

لكِ مع حبِّي،

كاثرين فيرنن

(4)

من السَّيِّد دي كورسي إلى السَّيِّدة فيرنن

باركلاندز

أختي العزيزة، ـ أهنِّئكِ والسَّيِّد فيرنن على قرب استقبالك في أسرتك أفضلَ امرأةٍ لعوبٍ في إنجلترا. بصفتي مغازلًا مميَّزاً جدًّا، لطالما وضعتُها في اعتباري، ولكن تناهى إلى سمعي أخيرًا بعض تفاصيل سلوكها في لانغفورد: والذي يثبت أنَّها لا تقتصر على ذلك النَّوع من المغازلة البريئة التي تُرضي معظم النَّاس، وإنَّما تطمح إلى المزيد من ذلك الإرضاء اللَّذيذ الذي يجعل الأسرة بأكملها تعيسةً. فبسلوكها تجاه السَّيِّد مينوارنغ، سبَّبت الغيرة والشَّقاء لزوجته، وبملاطفتها شابًّا مرتبطاً مسبقًا بأخت السَّيِّد مينوارنغ حرمت فتاةً لطيفةً من معشوقها.

لقد عرفت كلَّ هذا من السَّيِّد سميث، وهو الآن في هذا الحيِّ (فقد تناولت العشاء معه في هيرست وويلفورد)، وقد قَدِمَ لتوِّه من لانغفورد حيث قضى أسبوعين مع سموِّها، ومن ثَمَّ فهو مؤهَّلٌ جيِّدًا لنقل الأخبار.

يا لها من امرأةٍ! أتوق إلى رؤيتها، وسأقبل بالتَّأكيد دعوتك الكريمة لأتمكَّن من تكوين فكرةٍ عن تلك القوى السَّاحرة التي يمكنها فعل الكثير ـ إذ استحوذت في

الوقت نفسه، وفي المنزل نفسه، على عواطف رجلين، لا أحد منهما كان حرًّا في منحها إيَّاها ـ وكلُّ ذلك بدون سحر الشَّباب! يسعدني أن أجد أنَّ الآنسة فيرنن لا ترافق والدتها إلى تشرشِل، فهي لا تملك حتى أخلاقًا لتوصي بها(1)؛ ووفقًا لرواية السَّيِّد سميث، فهي حمقاء ومغرورةٌ على السَّواء. وحين يتَّحد الكبرياء والغباء، لا يعود هناك أيُّ رياءٍ يستحقُّ الانتباه، ويجب إحاطة الآنسة فيرنن بازدراءٍ لا يزول؛ ولكنَّ كلَّ ما أستطيع استخلاصه، هو أنَّ اللّيدي سوزان تمتلك درجةً من الخداع الفتَّان الذي لا بدَّ وأن يكون من الممتع مشاهدته واكتشافه. سأكون معك قريباً جدًّا، وأنا لك دائمًا،

أخوك المحبُّ،

ر. دي كورسي

(1) أي لتقترحها زوجةً.

(5)

من اللّيدي سوزان فيرنن إلى السَّيِّدة جونسون

تشرشِل

عزيزتي أليسيا، لقد تلقَّيتُ ملاحظتكِ قُبَيلَ مغادرتي البلدة، وابتهجتُ لتأكُّدي من أنَّ السَّيِّد جونسون لم يشكَّ في أيِّ شيءٍ عن موعدك مساءَ أمس. من الأفضل بلا شكٍّ خداعه تمامًا، ولأنَّه سيكون عنيدًا لا بدَّ من خداعه. وصلتُ إلى هنا بأمانٍ، ولا سبب لديَّ للشَّكوى من استقبال السَّيِّد فيرنن لي؛ ولكنَّني أعترف بأنَّني لست راضيةً بالقدر نفسه عن سلوك امرأته. إنَّها في الواقع حسنة التَّربية، ولها مظهر امرأةٍ متأنِّقة، ولكنَّ سلوكها ليس على النَّحو الذي يمكن أن يقنعني بأنَّها ستكون ذات حظوةٍ عندي. أردت لها أن تكون مسرورةً برؤيتي. لقد كنت ودودةً قدر المستطاع في هذه المناسبة، ولكن دون جدوى. إنَّها لا تحبُّني. من المؤكَّد أنَّ هذا الجفاء لا يُعَدُّ مُفاجئًا للغاية حين نضع في الاعتبار أنِّي بذلت بعض الجهد لمنع زواجها من أخ زوجي، ولكنَّها، مع هذا، تُظهر روحًا حقودةً وانتقاميَّةً باستيائها من مخطَّطٍ استحوذ عليَّ قبل ستِّ سنواتٍ مضت، ولم ينجح في نهاية الأمر.

أميل أحيانًا إلى النَّدم لأنِّي لم أسمح لتشارلز بشراء قلعة فيرنن حين اضطررنا إلى بيعها؛ ولكنَّه كان ظرفًا صعبًا، خاصَّةً وأنَّ البيع تمَّ في وقت زواجه بالضَّبط؛ ويجب على الجميع احترام حساسيَّة تلك المشاعر التي لا يمكن أن تحتمل التَّقليل من كرامة زوجي بامتلاك شقيقه الأصغر تركة الأسرة. هل كان من الممكن ترتيب الأمور بحيث نتجنَّب ضرورة مغادرتنا القلعة؟ هل كان بإمكاننا العيش مع تشارلز وإبقائه عَزَبًا؟ كان عليَّ أن أكون بعيدةً جدًّا عن إقناع زوجي بالتَّخلُّص منها إلى مكانٍ آخر؛ ولكنَّ تشارلز كان على وشك الزَّواج من الآنسة دي كورسي، فبرَّر لي هذا الحدث تصرُّفي. الأطفال كثيرون هنا، وما الفائدة التي يمكن أن تعود عليَّ من شرائه قلعة فيرنن؟ ربَّما أدَّت عرقلتي ذلك إلى إعطاء زوجته انطباعًا غير مرغوبٍ عنِّي، ولكن حين يكون هناك ميلٌ إلى الكراهية، لن تكون هناك حاجةٌ إلى الأسباب أبدًا؛ وأمَّا بالنِّسبة إلى الأمور الماليَّة فهي لم تمنعه من أن يكون ذا عونٍ كبيرٍ لي. أنا حقًّا أحترمه، وهو يفرض نفسه بسهولة! المنزل جيِّدٌ، والأثاث عصريٌّ، وكلُّ شيءٍ يشي بالأناقة والوفرة. أنا متأكِّدةٌ من أنَّ تشارلز ثريٌّ للغاية. فما إن يصنع المرء شهرته في دارٍ مصرفيَّةٍ حتى تتدفَّق عليه أموالٌ طائلة؛ ولكنَّهم لا يعرفون ماذا يفعلون به، ويحافظون على صحبةٍ قليلةٍ جدًّا، ولا يذهبون أبدًا إلى لندن سوى للعمل. سأكون في غاية الغباء. أعني إن حاولتُ أن أكسب قلب سِلْفَتي من خلال الأطفال؛ أنا أعرف كلَّ أسمائهم بالفعل، وبأكبر قدرٍ من العاطفة سأوثِّق علاقتي بأحدهم على وجه الخصوص، فريدريك الصَّغير الذي سأحمله في حضني وأتنهَّد حزنًا على عمِّه العزيز.

يا لمينوارنغ المسكين! لا حاجة لي بإخبارك كم أفتقده، وكم هو دائمًا في أفكاري. لقد وجدت رسالةً حزينةً منه عند وصولي إلى هنا، رسالةً مليئةً بالشَّكاوى من زوجته وأخته، وبالحسرات من قسوة مصيره. لقد قمتُ بتمرير الرِّسالة على أنَّها رسالةٌ من زوجته إلى عائلة فيرتون، وحين أكتب إليه سأتظاهر بأنَّني أكتب إليكِ.

المخلصةُ لكِ دومًا،

س. فيرنن

(6)

من السَّيِّدة فيرنن إلى السَّيِّد دي كورسي

تشرشِل

حسنًا، عزيزي ريجينالد، لقد رأيتُ هذه المخلوقة الخطيرة، ويمكنني أن أقدِّم لك وصفًا لها، مع أنَّني آمل أن تتمكَّن قريبًا من تكوين حكمك الخاص. إنَّها حقًّا جميلةٌ للغاية. ومع أنَّك قد تختار التَّشكيك في جاذبيَّة سيِّدةٍ لم تعد صغيرةً، يجب أن أعلن من ناحيتي أنَّني نادراً ما رأيت امرأةً بجمال اللّيدي سوزان. إنَّها فاتنةٌ ورقيقةٌ، بعينَين رماديَّتَين رقيقتَين ورموشٍ داكنةٍ؛ ومن مظهرها، لن يفترض المرء أنَّها تجاوزت الخامسة والعشرين، مع أنَّها في الواقع أكبر بعشر سنوات. لم أكن بالتَّأكيد مستعدَّةً للإعجاب بها، مع أنَّني لطالما سمعت أنَّها جميلة؛ ولا يسعني إلَّا الشُّعور بأنَّها تتمتَّع بتوليفةٍ استثنائيَّةٍ من التَّناسق والذَّكاء والجمال. كان حديثها إليَّ رقيقًا وصريحًا، بل حنونًا، لدرجة أنِّي لو لم أكن أعرف كم كانت تكرهني دائمًا لزواجي من السَّيِّد فيرنن، ولو لم ألتقيها من قبل، لظننتها صديقةً مقرَّبة. أعتقد أنَّ أحدنا محقٌّ في ربطه بين الثِّقة بالسُّلوك والغنج، وفي توقُّعه أنَّ الحديث الماجن يلازم بشكلٍ طبيعيٍّ العقل الماجن؛ وعلى أيِّ حالٍ كنتُ على استعدادٍ لوضع ثقةٍ غير مدروسةٍ في اللّيدي سوزان، لأنَّ وجهها جميلٌ للغاية، وصوتها

وأسلوبها يريحان القلوب. أنا آسفةٌ لأنَّها كذلك، فما كلُّ هذا سوى خداع. لسوءِ الحظِّ، المرءِ يعرفها جيِّدًا. إنَّها ذكيَّةٌ ومقبولةٌ، ولديها كلُّ تلك المعرفة بالعالم التي تجعل الحديث معها مريحاً، وهي تتحدَّث بشكلٍ لَبِقٍ للغاية، مع استخدامٍ موفَّقٍ للُّغة يفيدها في كثيرٍ من الأحيان، على ما أعتقد، في جعل الأسود يبدو أبيضَ. فلقد كادت تقنعني بالفعل بارتباطها الشَّديد بابنتها، مع أنَّني كنت مقتنعةً منذ فترةٍ طويلةٍ بعكس ذلك. فهي تتحدَّث عنها بكثيرٍ من الحنان والقلق، وتتحسَّر بمرارةٍ على إهمال تعليمها الذي تعدُّه أمرًا لا مفرَّ منه أبدًا، لدرجة أنَّني أجبرت نفسي على تذكُّر عدد فصول الرَّبيع المتتالية التي قضتها سموُّها في المدينة تاركةً ابنتها في ستافوردشر تحت رعاية الخدم، أو المربِّية في أحسن الأحوال، كي أمنع نفسي من تصديق ما تقول.

وإذا كان لسلوكها مثل هذا التَّأثير الكبير على قلبي المستاء منها، فيمكنك الحكم على مدى قوَّة تأثيره على مزاج السَّيِّد فيرنن السَّمح. تمنَّيت لو كنتُ مقتنعةً مثله تمامًا بأنَّه كان خيارها حقًّا مغادرة لانغفورد إلى تشرشِل. وقد بقيَتْ هناك لشهورٍ قبل أن تكتشف أنَّ طريقة عيش صديقتها لا تناسب وضعها أو مشاعرها، ولربَّما صدَّقتُ أنَّ القلق من فقدان زوجٍ مثل السَّيِّد فيرنن، الذي كان سلوكها الخاصُّ نحوه بعيدًا عن كونه مقبولاً، هو ما قد يجعلها ترغب في الانزواء. ولكن لا يمكنني نسيان طول زيارتها لآل مينوارنغ، وحين أفكِّر في نمط الحياة التي عاشتها معهم، والمختلفة عن تلك التي يجب أن تعيشها الآن، لا يسعني سوى

أن أفترض أنَّ الرَّغبة في إثبات سمعتها باتِّباعها ـ على الرَّغم من تأخُّرها ـ صراطَ اللِّياقة، قد تسبَّب في إبعادها عن عائلةٍ كان يجب أن تكون سعيدةً بينها في الواقع. ومع ذلك، لا يمكن أن تكون قصَّة صديقك السَّيِّد سميث صحيحةً تمامًا، ذلك أنَّها تراسل بانتظامٍ السَّيِّدة مينوارنغ. وهي بلا ريبٍ قصَّةٌ مبالَغٌ فيها. إذ من الصَّعب عليها أن تخدع رجلين في وقتٍ واحدٍ بهذه الصُّورة الفادحة.

المخلصة لك،

كاثرين فيرنن

(7)

من اللّيدي سوزان فيرنن إلى السَّيِّدة جونسون

تشرشِل

عزيزتي أليسيا، أنت جيِّدةٌ جدًّا في رعاية فريدريكا، وأنا ممتنَّةٌ لذلك كدليلٍ على صداقتك؛ ولكن لأنَّه لا يمكنني أن أشكَّ في دفء عاطفتك، أجدُني بعيدةً كلَّ البعد عن أن أطلب منك تضحيةً ثقيلة. إنَّها فتاةٌ غبيَّةٌ وليس لديها ما تقدِّمه. لذلك، لن أستطيع، من جهتي، تضييع لحظةٍ واحدةٍ من وقتك الثَّمين بإرسالها إلى شارع إدوارد، خاصَّةً وأنَّ كلَّ زيارةٍ تقوم بها ستكون إنقاصًا كبيراً من مسألة التَّعليم الفائقة الأهمِّيَّة، التَّعليم الذي أرغب لها في نيله حقًّا بينما هي في رعاية الآنسة سمرز. أريدها أن تعزف وتغنِّي بقدرٍ من الذَّوق ودرجةٍ عاليةٍ من الثِّقة، لأنَّها تملك يَدِي وذراعِي وصوتًا مقبولًا. لقد تمتَّعتُ كثيرًا في سنوات طفولتي لدرجة أنَّني لم أكن مضطرَّةً أبدًا إلى حضور أيِّ شيء، ولذلك فأنا الآن بدون تلك الإنجازات التي أصبحت ضروريَّةً في هذه الأيَّام لاكتمال شخصيَّة المرأة الجميلة. ولا يعني ذلك أنَّني مدافعةٌ عن التَّوجُّه السَّائد لاكتساب معرفةٍ كاملةٍ بجميع اللُّغات والفنون والعلوم وما إلى هنالك. إنَّه هدرٌ للوقت أن تكوني سيِّدةً تجيد الفرنسيَّة والإيطاليَّة والألمانيَّة، الموسيقى والغناءَ والرَّسمَ وما إلى هنالك، فهذه

أمورٌ قد تجلب للمرأة بعض الثَّناء، ولكنَّها لن تضيف حبيبًا واحدًا إلى قائمتها ـ الجمالُ والأخلاقُ، في نهاية الأمر، هما الأكثر أهمِّيَّة. لذلك، فأنا لا أقصد أنَّ تحصيل فريدريكا العلميَّ يجب أن يكون أكثر من سطحيًّا، وأنا أُطَمْئِنُ نفسي بأنَّها لن تبقى في المدرسة الوقتَ الكافيَ لفهم أيِّ شيءٍ بدقَّة. آمل أن أراها زوجةً للسِّير جيمس في غضون اثني عشر شهرًا. أنت تعرفين ما أؤسِّسُ عليه أملي، وهو بالتَّأكيد أساسٌ جيِّدٌ، لأنَّ المدرسة لا بدَّ أن تكون مهينةً جدًّا لفتاةٍ في عمر فريدريكا. ومن جانبك، فمن الأفضل عدم دعوتها بعد الآن إلى هذا الأمر، حيث أتمنَّى لها أن تجد وضعها مزعجًا قدر الإمكان. أنا متأكِّدةٌ من أنَّ السِّير جيمس حاضرٌ في أيِّ وقت، ويمكنني أن أجعله يجدِّد طلبه برسالةٍ منِّي. سأزعجك في هذه الأثناء بمنعه من أيِّ ارتباطٍ آخر حين يأتي إلى المدينة. اطلبي مجيئه إلى منزلك من حينٍ إلى آخر، وتحدَّثي معه عن فريدريكا حتى لا ينساها. وعلى العموم، أنا أشيد للغاية بسلوكي في هذه المسألة، وأعدُّه مثالًا رائعًا للحيطة والحنان. تصرُّ بعض الأمَّهات على قبول بناتهنَّ العرض الجيِّد من المرَّة الأولى؛ ولكنَّني لم أستطع توطين نفسي على إرغام فريدريكا على الزَّواج الذي رفضه قلبها، أو القيام بإجراءٍ شديد القسوة لدفعها إلى اتِّخاذ خيارٍ مغايرٍ لخيارها الخاصِّ، بجعلها غير مرتاحةٍ مطلقًا حتى تقبله ـ ولكن كفى كلامًا عن هذه الفتاة المتعِبة. قد تتساءلين حقًّا كيف أتصوَّر أن أقضي وقتي هنا، الذي كان في أسبوعه الأوَّل مملًّا بشكلٍ لا يمكن تحمُّله. الآن، ومع ذلك، بدأ الوضع بالتَّحسُّن، وتوسَّعت صحبتنا بانضمام شقيق اللّيدي فيرنن، الشَّابِّ الوسيم،

الذي وعدني ببعض التَّسلية. هناك شيءٌ فيه يثير اهتمامي، نوعٌ من الوقاحة والألفة الزَّائدة التي سأعلِّمه تغييرها. إنَّه مفعمٌ بالحيويَّة، ويبدو ذكيًّا، وإذا أوليته اهتمامًا أكبر ممَّا توليه إيَّاه أخته اللَّطيفة، فقد يكون مغازلًا مقبولًا. هناك متعةٌ رائعةٌ في ترويض روحٍ متغطرسةٍ، في جعل شخصٍ قرَّر سلفًا عدم الإعجاب بك يقرُّ بتفوُّقك. لقد قمت بصدِّه بالفعل بتحفُّظي البارد، وسوف يكون مسعاي التَّقليل أكثر قليلًا من تفاخر السَّيِّدة دي كورسي المعجبة بنفسها، وذلك بإقناع اللّيدي فيرنن أنَّ تحذيراتها الأخويَّة ذهبت هباءً، وإقناع ريجينالد بأنَّها تكذِّبني بصورةٍ مخزية. سيعمل هذا المخطَّط على تسليتي على الأقلِّ، وسيمنعني من الشُّعور القويِّ بهذا الانفصال المروِّع عنك وعن كلِّ من أحب.

المخلصةُ لكِ دومًا،

س. فيرنن

(8)

من السَّيِّدة فيرنن إلى اللّيدي دي كورسي

تشرشِل

أمِّي العزيزة ـ لا يجب أن تتوقَّعي عودة ريجينالد مرَّةً أخرى لبعض الوقت. إنَّه يريدني أن أخبرك أنَّ الطَّقس الجميل حاليًّا يدفعه إلى قبول دعوة السَّيِّد فيرنن لإطالة مدَّة إقامته في سُسِكْس، وأنَّهما ربَّما يذهبان للصَّيد معًا. كما ينوي أن يرسل في طلب خيوله على الفور، ومن المستحيل معرفة متى يمكنك رؤيته في كينت. لن أخفي مشاعري عنك بشأن هذا التَّغيير، يا أمِّي العزيزة، مع أنَّني أرى أنَّه من الأفضل عدم نقلها إلى والدي الذي قد يعرِّضه قلقه المفرط بشأن ريجينالد إلى ذعرٍ قد يؤثِّر بشكلٍ خطيرٍ على صحَّته ومعنويَّاته. لقد دبَّرَتْ اللّيدي سوزان بالطَّبع، وفي غضون أسبوعين، أمورَها بحيث تجعل أخي يحبُّها. باختصارٍ، أنا مقتنعةٌ بأنَّ بقاءه هنا إلى ما بعد الوقت المحدَّد أصلًا لعودته يعود إلى درجة انبهاره بها أكثر ممَّا إلى رغبته في الصَّيد مع السَّيِّد فيرنن، وبالطَّبع لا يمكنني الحصول على المتعة من طول زيارته التي كان من المفترض أن تقدِّمها لي صحبة أخي. إنَّني مستفَزَّةٌ فعلًا من دهاء هذه المرأة عديمة المبادئ؛ فأيُّ دليلٍ يمكن تقديمه على قدراتها الخطيرة أقوى من الانحراف في بصيرة ريجينالد الذي عندما دخل المنزل

كان ضدَّها بكلِّ تأكيد! في رسالته الأخيرة، أعطاني بالفعل بعض التَّفاصيل عن سلوكها في لانغفورد، مثلما تلقَّاها من رجلٍ يعرفها جيِّدًا، والتي، إن كانت صحيحةً، يجب أن تثير البغض ضدَّها، وهو ما كان ريجينالد نفسه متهيِّئًا له بالكامل. أنا متأكِّدةٌ من أنَّ رأيه فيها كان متدنِّيًا مثل رأيه في أيِّ امرأةٍ في إنجلترا. وكان من الواضح أوَّلَ وصوله أنَّه كان يعدُّها واحدةً لا تستحقُّ شهيَّ المأكل ولا الاحترام، وأنَّه كان يشعر أنَّها ستسعد باهتمام أيِّ رجلٍ يميل إلى مغازلتها. أعترف أنَّ سلوكها كان يوحي باستبعاد مثل هذه الفكرة. فلم أكتشف أدنى خطأٍ فيه ـ لا شيء من الغرور، أو التَّظاهر، أو الإلحاح؛ وهي جذَّابةٌ تمامًا لدرجة أنَّه ما كان ينبغي لي أن أتساءل عن سرِّ سعادته معها لو لم يكن يعرف عنها شيئًا سابقًا لهذا التَّعارف الشَّخصي؛ ولكنَّ ما يذهلني حقًّا، ضدَّ المنطق، وضدَّ الاقتناع، أن يكون سعيدًا بها تمامًا، كما أنا متيقِّنةٌ من أنَّه كذلك. كان إعجابه قويًّا في البداية، ولكن ليس أكثر من الطَّبيعيِّ، ولم أتساءل إن كان قد صُدم كثيرًا برفق ورقَّة طبعها؛ لأنَّه حين ذكرها لاحقًا كان ذلك في صورة ثناءٍ غير عاديٍّ؛ وبالأمس قال إنَّه في الواقع لا يمكن أن يفاجَأ بأيِّ تأثيرٍ يحدث في قلب الإنسان بسبب مثل هذه المحبَّة والقدرات؛ وحين أسفتُ، ردًّا على ذلك، لسوء تصرُّفها، عقَّب بأنَّه أيًّا كانت أخطاؤها، فإنَّها تُنسَب إلى تعليمها المحدود وزواجها المبكِّر، وبأنَّها كانت بأجمعها امرأةً رائعة. هذا الميل إلى تبرير سلوكها أو التَّغاضي عنه، في دفء الإعجاب، يزعجني؛ ولو لم أكن أعرف أن ريجينالد يأتي إلى المنزل في تشرشِل كثيرًا لدرجة أنَّه لا يحتاج إلى دعوةٍ لإطالة مدَّة زيارته،

لندمت على دعوة السَّيِّد فيرنن له. إنَّ غاية اللّيدي سوزان هي بالطَّبع المغازلة البحتة، أو الرَّغبة في الإعجاب التَّامِّ؛ لا أستطيع أن أتخيَّل للحظةٍ أنَّها تضع نصب عينيها أيَّ شيءٍ أكثر جدِّيَّةً. ولكن يؤلمني أن أرى شابًّا بمثل بصيرة ريجينالد يتعرَّض كلِّيًّا لخداعها.

لكِ دومًا،

كاثرين فيرنن

(9)

من السَّيِّدة جونسون إلى اللّيدي س. فيرنن

شارع إدوارد

صديقتي العزيزة ـ أهنِّئك على وصول السَّيِّد دي كورسي، وأنصحك بالزَّواج به بكلِّ الوسائل؛ فتركة والده، كما نعلم، كبيرةٌ، وأظنُّها موقوفةٌ له بالتَّأكيد. السِّير ريجينالد ضعيفٌ للغاية، ومن غير المحتمل أن يقف في طريقك طويلًا. أسمع عن الشَّابِّ كلامًا جيِّدًا؛ ومع أنَّه لا يمكن لأحدٍ أن يستحقَّك حقًّا، سيِّدتي العزيزة سوزان، إلَّا أنَّ السَّيِّد دي كورسي قد يستحق. سيغتاظ مينوارنغ بالطَّبع، ولكن يمكنك تهدئته بسهولة؛ أضيفي إلى ذلك أنَّ أكثر منازل الشَّرف صرامةً لا يمكن أن تطلب منك انتظار تحرُّره من قيوده. لقد رأيت السِّير جيمس. فقد جاء إلى المدينة لبضعة أيَّامٍ في الأسبوع الماضي، واتَّصل عدَّة مرَّاتٍ من شارع إدوارد. تحدَّثتُ معه عنك وعن ابنتك، وهو بعيدٌ جدًّا عن نسيانك، وأنا على يقينٍ من أنَّه سيتزوَّج أيًّا منكما بسرور. أعطيته آمالًا في تهدئة فريدريكا، وأخبرته بالكثير من مظاهر التَّحسُّن التي طرأت عليها. وقد وبَّخته لأنَّه ضاجع ماريًّا مينوارنغ؛ واحتجَّ بأنَّه كان يمزح فحسب، وضحكنا بشدَّةٍ من خيبة أملها. وباختصارٍ، كانت الأمور ودِّيَّةً للغاية. إنَّه سخيفٌ كما عهدناه دائمًا.

المخلصة لك،

أليسيا

(10)

من اللّيدي سوزان فيرنن إلى السَّيِّدة جونسون

تشرشِل

أنا مُمتنَّةٌ لكِ كثيرًا، يا صديقتي العزيزة، على نصيحتك بشأن السَّيِّد دي كورسي، والتي أعرف أنَّها مُنحت مع إيقانٍ كاملٍ بنفعيَّتها، مع أنَّني لست مستعدَّةً تمامَ الاستعداد الآن للعمل بها. لا يمكنني أن أبتَّ بسهولةٍ في أمرٍ جادٍّ كالزَّواج. خاصَّةً وأنَّني لست في حاجةٍ إلى المال في الوقت الحاضر، وربَّما حتى وفاة الرَّجل العجوز لن تكون الإفادة من الزَّواج كبيرة. صحيحٌ أنَّني مغرورةٌ كفايةً لأصدِّق أنَّ ذلك في متناول يدي. لقد جعلته مدركًا لقدراتي، ويمكنني الآن الاستمتاع بنشوة الانتصار على عقلٍ كان مستعدًّا لكراهيَّتي، وللتَّحيُّز ضدَّ جميع أفعالي الماضية. وآمل أن تكون أخته أيضًا قد اقتنعت، بعد أن وُوجِهَتْ بالنَّباهةِ والسُّلوك الحسن، بأنَّه لا فائدة من ذكر مثالب أحدٍ أمامَ الآخرين. أرى بوضوحٍ أنَّها غير مرتاحةٍ للتَّقدُّم الذي أحرزتُه في تقييم أخيها الجيِّد لي، وخلصتُ إلى أنَّها لن تكون راغبةً من جانبها في التَّصدِّي لي؛ ولكن بعد أن جعلتُه يشكُّ في صدقيَّةِ رأيها بي، أظنُّ أنِّي قد أتحدَّاها. لقد كان أمرًا مفرحًا جدًّا لي أن أشاهد تقدُّمه نحو العلاقة الحميمة، وأكثر من ذلك أن ألاحظ أسلوبه المتغيِّر نتيجة

صدودي والتَّعالي البارد في تصرُّفاتي تجاه مسلكه الوقح نحو الحميميَّة الصَّريحة. لقد كان سلوكي حذرًا منذ البداية، ولم أتصرَّف قَطُّ كغانيةٍ طوال مجرى حياتي، مع أنَّ رغبتي في الهيمنة لم تكن يومًا أكثر وضوحًا ممَّا هي عليه اليوم. لقد أخضعته بالكامل بتبادل المشاعر والمحادثات الجادَّة، وجعلته، كما قد أجرؤ على القول، يوشك على الأقلِّ على الوقوع في غرامي، من دون أيِّ مظهرٍ من مظاهر المغازلة الأكثر شيوعًا. إنَّ إدراك اللّيدي فيرنن لاستحقاقها كلَّ نوعٍ من الانتقام يمكن أن يتاح لي لإلحاق الضَّرر بسوء تصرُّفاتها، قد يجعلها وحده تتصوَّر أنَّ قيامي بأيِّ سلوكٍ لطيفٍ أو فائق الدَّماثة إنَّما هو للتَّمثيل عليها. دعيها تفكِّر وتتصرَّف على النَّحو الذي تختاره. لم أجد قَطُّ أنَّ نصيحة الأخت يمكن أن تمنع الشَّابَّ من الوقوع في الحُبِّ إذا اختار هو ذلك. نحن نمضي الآن نحو نوعٍ من الثِّقة، وباختصارٍ، من المرجَّح أن ننخرط في نوعٍ من الحُبِّ العذري. من جانبي، فلتكوني على يقينٍ من أنَّ الأمر لن يتعدَّى أكثر من ذلك أبدًا، لأنِّي وإن لم أكن مرتبطةً بشخصٍ آخر بقدر ما أنا قادرةٌ على ذلك، لن أمنح حبِّي لرجلٍ تجرَّأ على التَّفكير فيَّ بدناءة. يتمتَّع ريجينالد بشخصيَّةٍ جيِّدةٍ وهو يستحقُّ الثَّناء الذي سمعته عنه، ولكنَّه ما يزال أدنى بكثيرٍ من صديقنا في لانغفورد. إنَّه أقلُّ أناقةً وأقلُّ إلمامًا من مينوارنغ، وهو ضعيفٌ إلى حدٍّ ما في قول تلك الأشياء المبهجة التي تضع المرء في حالٍ جيِّدةٍ مع نفسه ومع العالم. ومع هذا، فهو مقبولٌ تمامًا، مقبولٌ بما يكفي ليوفِّر لي التَّسلية، وليجعل الكثير من تلك السَّاعات تمرُّ بشكلٍ ممتعٍ للغاية، تلك السَّاعات التي كنت سأنفقها في محاولة التَّغلُّب على تحفُّظ سِلْفَتي،

وفي الاستماع إلى حديث زوجها الكئيب. إنَّ ما قلتِه عن السِّير جيمس مُرضٍ للغاية، وسأعطي الآنسة فريدريكا تلميحًا عن نواياي في القريب العاجل.

المخلصة لك،

س. فيرنن

(11)

من السَّيِّدة فيرنن إلى اللّيدي دي كورسي

تشرشِل

أشعر حقًّا بعدم الارتياح، يا والدتي العزيزة، بشأن ريجينالد، وأنا أشاهد التَّزايد الحثيث لتأثير اللّيدي سوزان فيه. هما الآن يكوِّنان صداقةً خاصَّةً، وكثيرًا ما انخرطا معًا في محادثاتٍ طويلة. لقد توصَّلت بالدَّلال الأكثر مكراً إلى إخضاع بصيرته لأغراضها الخاصَّة. من المستحيل ألَّا نرى العلاقة الحميمة بينهما في وقتٍ قريبٍ جدًّا ودون أيِّ سابق إنذار، مع أنَّني بصعوبةٍ أستطيع أن أفترض أنَّ خطط اللّيدي سوزان قد تمتدُّ إلى الزَّواج. أتمنَّى أن تتمكَّني من إعادة ريجينالد إلى المنزل مرَّةً أخرى بأيِّ حجَّةٍ معقولة؛ فهو ليس مستعدًّا على الإطلاق لمغادرتنا، وقد لمحتُ له مراراً عن الحالة الصِّحِّيَّة غير المستقرَّة لوالدي وفقًا لما تسمح لي به قواعد اللِّياقة في بيتي. ولكن لا بدَّ أنَّ سلطتها عليه أصبحت بلا حدودٍ الآن، لأنَّها طمست تمامًا كلَّ سوء رأيه السَّابق فيها، وأقنعته ليس بنسيان سلوكها فحسب، بل وبتبريره. فرواية السَّيِّد سميث عن تصرُّفاتها في لانغفورد، إذ اتَّهمها بجعل السَّيِّد مينوارنغ والشَّابِّ المرتبط بالآنسة مينوارنغ يشتِّتان انتباههما في حبِّها، وهو ما كان ريجينالد على يقينٍ قويٍّ منه حين أتى إلى هنا، ما هي الآن، في

اعتقاده، سوى مجرَّد اختلاقٍ فاضح. لقد أخبرني بذلك بحرارةٍ، وبأسلوبٍ عبَّر فيه عن أسفه لأنَّه كان يعتقد العكس. كم أنا حزينةٌ بصدقٍ لأنَّها دخلت هذا المنزل يومًا! لطالما كنت أتطلَّع إلى قدومها بقلق؛ ولكنَّ قلقي كان بعيدًا جدًّا عن ريجينالد. كنت أتوقَّع أن تكون لي رفيقةً غير مرغوبٍ فيها، ولكنَّني لم أتخيَّل أن يتعرَّض أخي لأدنى خطرٍ أو أن تأسره امرأةٌ كان يعرف أخلاقها جيِّدًا ويحتقرها بشدَّة. إن استطعتِ إبعاده عنها فسيكون ذلك أمرًا جيِّدًا.

المخلصة لك،

كاثرين فيرنن

(12)

من السِّير ريجينالد دي كورسي إلى ابنه

باركلاندز

أعلم أنَّ الشَّباب عمومًا لا يحبِّذون أيَّ استفسارٍ، حتى من أقرب أقربائهم، عمَّا يخصُّ شؤون القلب، ولكنَّني آمل، يا عزيزي ريجينالد، أن تكون أفضل من أمثال أولئك الذين لا يقرُّون بقلق الأب، ويحسبون أنفسهم مميَّزين برفض إيلائه ثقتهم وإغفال نُصحه. يجب أن تكون مدركًا، بصفتك الابنَ الوحيدَ وممثِّلَ عائلةٍ عريقةٍ، أنَّ سلوكك في الحياة هو الأكثر إثارةً للاهتمام عند معارفك؛ وفيما يتعلَّق بمسألة الزَّواج البالغة الأهمِّيَّة بشكلٍ خاصٍّ، يصبح كلُّ شيءٍ على المحكِّ ـ سعادتك الخاصَّة، وسعادة والديك، وسمعة اسمك. لا أفترض أنَّك ستقوم عن عمدٍ بعقد خطوبةٍ أكيدةٍ من هذا النَّوع دون إبلاغي وأمِّك، أو على الأقلِّ، دون اقتناعٍ بأنَّنا سنوافق على اختيارك؛ ولكن لا يسعني إلَّا أن أخشى أن تجرَّك اللّيدي التي تعلَّقت بها في الآونة الأخيرة إلى زواجٍ يجب على جميع أفراد عائلتك، البعيدين والقريبين، أن يرفضوه بشدَّة. إنَّ عمر اللّيدي سوزان يُعَدُّ في حدِّ ذاته سبباً مادِّيًّا كافياً للاعتراض، ولكنَّ شخصيَّتها أكثر خطورةً بكثير، لدرجة أنَّ الفارق البالغ اثني عشر عامًا يصبح أمراً غير ذي شأن بالمقارنة مع ذلك. ولو لم

يُعمِك شيءٌ من الانبهار، لكان سُخفًا منِّي أن أكرِّر ذكر حالات سوء سلوكها الكبير المعروفة جدًّا بشكلٍ عام.

كان إهمالها لزوجها، وإغواؤها لرجالٍ آخرين، وبذخها وإسرافها، فاضحًا جدًّا وسيِّئ السُّمعة بحيث لم يكن من الممكن لأحدٍ أن يجهله في ذلك الوقت، ولا يمكن لأحدٍ أن ينساه الآن. كانت طِيبةُ السَّيِّد تشارلز فيرنن تصوِّرها دائمًا لعائلتنا بألوانٍ مخفَّفة، ومع ذلك، مع كلِّ مساعيه السَّخيَّة لإيجاد الأعذار لها، نعلم أنَّها قامت، تقودها أكثر الدَّوافع أنانيَّةً، ببذل كلِّ الجهود الممكنة لتمنع زواجه بكاثرين.

إنَّ سنِّي وأوجاعي المتزايدة تجعلني راغباً بشدَّةٍ في رؤيتك مستقرًّا في هذه الحياة. بالنِّسبة إلى ثروة الزَّوجة، فإنَّ طيبتي تجعلني غير مبالٍ، ولكنَّ عائلتها وشخصيَّتها يجب ألَّا يكون عليهما أيُّ غبار. حين تحدِّد خيارك بحيث لا يمكن الاعتراض عليه، يمكنني أن أعدك بموافقةٍ جاهزةٍ وسعيدة؛ ولكن، من واجبي أن أعارض ارتباطًا لا يمكن سوى للمكر المكين أن يجعله ممكنًا، وسوف يُحيله في النِّهاية بائسًا. من الممكن أن يكون سلوكها ناجمًا عن الغرور فحسب، أو عن الرَّغبة في نيل الإعجاب من رجلٍ كانت تعدُّه متحيِّزًا بوضوحٍ ضدَّها؛ ولكن، من المرجَّح أيضاً أنَّها تهدف إلى شيءٍ آخر. إنَّها فقيرةٌ، وربَّما كانت تسعى بطبيعة الحال إلى ارتباطٍ يكون بالضَّرورة مفيدًا لها؛ أنت تعرف حقوقك الخاصَّة، وأنَّ من سلطتي

أن أمنعك من وراثة ممتلكات الأسرة. إنَّ قدرتي على التَّضييق عليك خلال حياتي ستكون نوعًا من الانتقام الذي بصعوبةٍ أستطيع التَّنازل عنه تحت أيِّ ظرفٍ من الظُّروف.

أقول لك بصدقٍ مشاعري ونواياي: لا أرغب في تحريك مخاوفك، بل إحساسك وعاطفتك. سوف يدمِّر كلَّ راحةٍ في حياتي علمي بزواجك باللّيدي سوزان فيرنن؛ سيكون موتاً لذلك الفخر الصَّادق الذي عَدَدْتُه حتى الآن ابني؛ وسأخجل من رؤيته، أو سماعه، أو التَّفكير فيه. قد لا أفعل شيئًا جيِّدًا سوى إراحة بالي بهذه الرِّسالة، ولكنِّي شعرت أنَّ من واجبي إبلاغَكَ بأنَّ ميلك إلى اللّيدي سوزان ليس سرًّا عند أصدقائك، وتحذيرَكَ منها. وسأكون سعيدًا بسماع أسبابك في عدم تصديق ما قاله السَّيِّد سميث الذي لم يكن لديك شكٌّ في صدقه قبل شهر. إن استطعتَ أن تعطيني تأكيدًا بعدم وجود خططٍ تتجاوز الاستمتاع بالحديث مع امرأةٍ ذكيَّةٍ لفترةٍ قصيرةٍ، وتقديم الإعجاب فحسب بجمالها وقدراتها، دون غضِّ الطَّرف عن أخطائها، فسوف تعيد لي السَّعادة؛ ولكن، إن كنتَ لا تستطيع القيام بذلك، ففسِّر لي، على الأقلِّ، ما أدَّى إلى التَّغيُّر الكبير في رأيك بها.

أبوكَ المحبُّ،

ريجينالد دي كورسي

(13)

من اللّيدي دي كورسي إلى السَّيِّدة فيرنن

باركلاندز

عزيزتي كاثرين، لحسن الحظِّ أنِّي كنت منعزلةً في غرفتي حين وصلتني رسالتك الأخيرة، بسبب البرد الذي أضرَّ بعينيَّ لدرجةٍ منعتني من قراءتها بنفسي، ولذلك لم أستطع أن أرفض طلب والدك حين عرض عليَّ قراءتها، ممَّا يعني أنَّه علم بقلقي الشَّديد من جميع مخاوفك بشأن أخيك. كنت أنوي الكتابة إلى ريجينالد بنفسي بمجرَّد أن تسمح لي عيناي وأن أشير، قدر استطاعتي، إلى خطر التَّعارف الحميم بين امرأةٍ لعوبٍ كاللّيدي سوزان، وشابٍّ بمثل عمره وآماله الكبيرة. كنت أريد، علاوةً على ذلك، أن أذكِّره بكوننا وحدنا تمامًا الآن، وبأنَّنا نحتاج إليه بشدَّةٍ لرفع روحنا المعنويَّة في أمسيات الشِّتاء الطَّويلة. لا يمكن أبدًا معرفة إن كان سيحدث أيُّ شيءٍ جيِّدٍ الآن، ولكنَّني منزعجةٌ للغاية من أنَّ السِّير ريجينالد علم كلَّ شيءٍ عن هذه الأمور التي توقَّعنا أنَّها ستجعله غير مرتاح. لقد أدرك كلَّ مخاوفك في اللَّحظة التي قرأ فيها رسالتك، وأنا على يقينٍ من أنَّه لم يُخرج هذا الأمر من رأسه منذ ذلك الحين. لقد كتب بالبريد نفسه إلى ريجينالد رسالةً طويلةً مليئةً بكلِّ ذلك، وطلب بشكلٍ خاصٍّ تفسيرًا لما سمعه عن اللّيدي سوزان

ويناقض الأخبار الأخيرة الصَّادمة. وصله الرَّدُّ هذا الصَّباح، والذي سوف أرفقه لك، لأنِّي أظنُّك ترغبين في رؤيته. وددتُ لو كان أكثر إقناعاً، ولكنَّه يبدو مكتوبًا بذلك التَّصميم على التَّفكير جدِّيًّا في اللّيدي سوزان، وإنَّ تطميناته بشأن الزَّواج، وما إلى هنالك، لا تريح قلبي. أقول كلَّ ما أستطيع، مع ذلك، لإرضاء والدك، وهو بالتَّأكيد أقلُّ ارتياحًا منذ رسالة ريجينالد. يا له من استفزازٍ، يا عزيزتي كاثرين، أنَّ ضيفتك غير المرحَّب بها لم تكتفِ بمنع اجتماعنا في عيد الميلاد هذا فحسب، بل صارت مثارًا للكثير من الاضطراب والمشاكل! قبِّلي لي الأطفال الأعزَّاء.

أمُّك الحنون،

ك. دي كورسي

(14)

من السَّيِّد دي كورسي إلى السِّير ريجينالد

تشرشِل

سيِّدي العزيز، لقد تلقَّيت لتوِّي رسالتك التي أثارت دهشتي أكثر ممَّا أدهشني أيُّ شيءٍ من قبل. وعليَّ أن أشكر أختي، على ما أعتقد، لأنَّها قدَّمتني في مثل هذه الصُّورة بغرض تشويه رأيك بي، والتَّسبُّب لك بهذا القلق. لا أعرف لماذا عليها أن تختار إقلاق نفسها وعائلتها بتوقُّع حدثٍ لم يكن أحدٌ سواها، كما أؤكِّد، ليظنَّ أنَّه ممكن الحدوث. إنَّ إسناد مثل هذا التَّخطيط إلى اللّيدي سوزان سينفي عنها كلَّ أحقِّيَّتها بامتلاك البصيرة الثَّاقبة التي لا يُنكرها عليها حتى ألدُّ أعدائها؛ وبالمثل سيُسقط عنِّي كلَّ مزاعمي بامتلاك المنطق السَّليم إذا اتُّهمت بنيَّة الزَّواج في سلوكي نحوها. سيكون اختلاف العمر بيننا عائقاً لا يمكن تجاوزه، وأنا أتوسَّل إليك، يا والدي العزيز، أن تهدِّئ من روعك، وألَّا تسمح بعد الآن بأن تداخلكَ شكوكٌ لا يمكن سوى أن تضرَّ براحتك أكثر ممَّا قد تضرُّ بتفاهماتنا. ليس لديَّ أيُّ تصوُّرٍ آخر، في البقاء مع اللّيدي سوزان، سوى الاستمتاع لفترةٍ قصيرةٍ (كما عبَّرت عن ذلك بنفسك) بمحادثة امرأةٍ ذات قدراتٍ عقليَّةٍ عالية. لو أنَّ اللّيدي فيرنن بادلتني شيئًا من عاطفتي نحوها ونحو زوجها طوال مدَّة زيارتي،

لكانت حقَّقت بذلك الإنصاف لنا جميعًا؛ ولكنَّ أختي متحاملةٌ بشكلٍ مؤسفٍ، متحاملةٌ إلى ما هو أبعد من مجرَّد الرَّغبة في إدانة اللّيدي سوزان. وبسبب التَّعلُّق بزوجها، الأمر الذي يشرِّف في حدِّ ذاته كليهما، فإنَّها لا تستطيع أن تغفر المساعي الرَّامية إلى منع ارتباطهما، والتي نُسبت إلى أنانيَّة اللّيدي سوزان؛ ولكن في هذه الحالة، وكذلك في العديد من الحالات الأخرى، تسبَّب النَّاس بجروحٍ فادحةٍ لتلك اللّيدي بافتراضهم الأسوأ وراء دوافع سلوكها المشكوك فيه. لقد سمعت اللّيدي سوزان شيئًا ملموساً يعيب أختي ولدرجةٍ أقنعتها بأنَّ سعادة السَّيِّد فيرنن، الذي كانت تحبُّه كثيرًا، ستتدمَّر بالكامل بسبب ذلك الزَّواج. وهذا الظَّرف، في حين أنَّه يفسِّر الدَّوافع الحقيقيَّة لسلوك اللّيدي سوزان، ويزيل كلَّ اللَّوم الذي ألقي به عليها، قد يقنعنا أيضًا بألَّا نثق بكلِّ ما يُشاع عن الأشخاص؛ إذ لا يمكن لأيِّ شخصيَّةٍ، مهما كانت مستقيمةً، أن تنجو من حقد الذَّمِّ والقدح. إن كانت أختي، في أمان بيتها، حيث الفرص قليلةٌ قلَّةَ رغبتها في عمل الشَّرِّ، ولم تستطع تجنُّب القدح في عرض الآخرين، فيجب ألَّا ندين بشدَّةٍ أولئك الذين يعيشون في العالم محاطين بالإغراءات إن اتُّهِموا بالأخطاء التي هم معروفون بالقدرة على ارتكابها.

ألوم نفسي بشدَّةٍ لأنَّني صدَّقت بسهولةٍ تلك الحكايات الافترائيَّة التي لفَّقها تشارلز سميث للمساس بسمعة اللّيدي سوزان، لأنَّني مقتنعٌ الآن كم شوَّهت تلك الافتراءات سمعتها. بالنِّسبة إلى غيرة اللّيدي مينوارنغ، فقد كانت كلِّيًّا من

اختلاقه، وروايته عن تعلُّقها بحبيب الآنسة مينوارنغ لا تقلُّ تلفيقًا عن ذلك. فقد جذبت تلك الشَّابَّة السِّير جيمس مارتن ليمنحها بعض الاهتمام. ولأنَّه رجلٌ ثريٌّ، كان من السَّهل رؤية أنَّ نواياها تمتدُّ إلى الزَّواج. من المعروف جيِّدًا أنَّ الآنسة «م» تحاول تصيُّد زوج، ولذلك لا يمكن لأحدٍ أن يشفق عليها لفقدانها فرصة الحصول على زوجٍ ثريٍّ، الفرصة التي ضاعت منها تمامًا بسبب الجاذبيَّة الفائقة لامرأةٍ أخرى. كانت اللّيدي سوزان بعيدةً عن التَّطلُّع إلى مثل هذا الهدف، وكانت مصمِّمةً رغم التَّوسُّلات الأكثر إلحاحًا من السَّيِّد واللّيدي مينوارنغ على ترك العائلة بعد معرفة مدى استياء اللّيدي مينوارنغ من الانفصال عن عشيقها، مع أنَّ لديَّ ما يجعلني أصدِّق أنَّها تلقَّت مقترحاتٍ جادَّةً من السِّير جيمس، ولكنَّ مغادرتها إلى لانغفورد فور اكتشاف تعلُّقه بها يجب أن يبرِّئها في هذه المسألة عند أصحاب العقل الحصيف. أنا على يقينٍ، سيِّدي العزيز، من أنَّك ستشعر بهذه الحقيقة، وسوف تتعلَّم بموجبها كيف تنصف شخصيَّةَ امرأةٍ مظلومةٍ للغاية. أعلم أنَّ اللّيدي سوزان في قدومها إلى تشرشِل لم تكن محكومةً سوى بأكثر النَّوايا شرفًا وكياسةً؛ وأنَّ حرصها وتعقُّلها مثاليَّان، واحترامها للسَّيِّد فيرنن يساوي ما يستأهله؛ وأنَّ رغبتها في كسب رأي أختي الجيِّد تستحقُّ مقابلًا أفضل ممَّا تلقَّته. وهي كأمٍّ، لا غبار عليها. فهي تُظهر عاطفتها القويَّة تجاه طفلتها بوضعها في يد من سيعلِّمها بشكلٍ صحيحٍ؛ ولكن لأنَّها لا تعاني من الهوى الأعمى والضَّعيف لمعظم الأمَّهات، فهي متَّهمةٌ بأنَّها تفتقر إلى حنان الأم. ومع ذلك، سيعرف كلُّ شخصٍ ذي بصيرةٍ كيف يقيِّم عاطفتها الموجَّهة جيِّدًا

ويثني عليها، وسوف ينضمُّ إليَّ متمنِّيًا أن تكون فريدريكا فيرنن أكثر نفعاً من ذي قبل نحو رعاية والدتها الرَّقيقة. لقد كتبت الآن، يا والدي، مشاعري الحقيقيَّة نحو اللّيدي سوزان.

وستعرف من هذه الرِّسالة مدى إعجابي بقدراتها، وتقديري لشخصيَّتها. ولكن إن لم تقتنع بالقدر نفسه من خلال تأكيداتي الكاملة والحاسمة بأنَّ مخاوفك قد أُسِّسَتْ بشكلٍ خاطئٍ، فستقوم بإيذائي بشدَّةٍ وإتعاسي.

ابنك المحِبُّ،

ر. دي كورسي

(15)

من اللّيدي فيرنن إلى اللّيدي دي كورسي

تشرشِل

أمِّي العزيزة، ـ أعيد لك رسالة ريجينالد، فَرِحَةً من كلِّ قلبي أنَّ والدي ارتاح بفضلها: أخبريه بذلك، مع تهانيَّ. ولكن، فيما بيننا، يجب أن أقرَّ بأنَّها أقنعتني بعدم وجود نيَّةٍ لدى أخي في الزَّواج باللّيدي سوزان في الوقت الرَّاهن فحسب، وليس بأنَّه لن يخاطر بالقيام بذلك بعد ثلاثة أشهر. لقد قدَّم روايةً معقولةً للغاية عن سلوكها في لانغفورد. أتمنَّى أن يكون ذلك صحيحًا، ولكن لا بدَّ أنَّ ذكاءه هذا جاء من عندها، وأنا أقلُّ ميلًا إلى تصديق ذلك من ميلي إلى الحزن لمدى العلاقة الحميمة القائمة بينهما، والتي نستشفُّها من مناقشتهما مثل هذا الموضوع. يؤسفني أنَّني أثرت استياءه، ولكنَّني لا أتوقَّع شيئًا أفضل بينما هو متلهِّفٌ جدًّا لتسويغ تصرُّفات اللّيدي سوزان. وفي الواقع، إنَّه قاسٍ جدًّا معي، ومع ذلك آمل ألَّا أكون متسرِّعةً في حكمي عليها. المرأة المسكينة! مع أنَّ لديَّ أسبابًا كافيةً لكرهها، إلَّا أنَّني لا أستطيع إلَّا أن أشفق عليها في الوقت الحاضر، ذلك أنَّها تقاسي محنةً حقيقيَّةً، ولديها مشاغل عديدة. لقد تلقَّت هذا الصَّباح رسالةً من السَّيِّدة التي تركت ابنتها عندها، تطلب فيها نقل الآنسة فيرنن على الفور بعد

اكتشاف محاولتها الهرب. لماذا؟، أو أين كانت تنوي الذَّهاب؟، هذا ليس معروفاً؛ ولكن، لأنَّ وضعها قبل ذلك كان يبدو رائعاً، كان هذا أمرًا محزنًا، وبالطَّبع محزنًا للغاية للِّيدي سوزان. فريدريكا في السَّادسة عشرة، ويجب أن تُجيد التَّصرُّف بشكلٍ أفضل. ولكن ممَّا توحي به والدتها، أخشى أنَّها فتاةٌ منحرفة. فتاةٌ تمَّ تجاهلها للأسف، ويجب على والدتها أن تتذكَّر ذلك. انطلق السَّيِّد فيرنن إلى لندن بمجرَّد أن قرَّرت ما يجب القيام به. وكان عليه، إن كان ذلك ممكناً، أن يتمكَّن من إقناع الآنسة سمرز بالسَّماح لفريدريكا بالاستمرار معها؛ وإن لم يتمكَّن من ذلك، أن يحضرها إلى تشرشِل في الوقت الحاضر، ريثما يعثروا لها على مكانٍ آخر. في هذه الأثناء، تريحُ سموُّها نفسها بالتَّنزُّه على طول الطَّريق المشجَّر بصحبة ريجينالد، مستدرَّةً كلَّ مشاعره الرَّقيقة، على ما أظنُّ، حيالَ هذه الحادثة المحزنة. لقد حدَّثتني كثيرًا عن ذلك. إنَّها متحدِّثةٌ لبقةٌ للغاية. أخشى أن أكون لئيمةً، أو يجب أن أقول، أخشى أن أكون طيِّبةً جدًّا لأهتمَّ كثيرًا؛ ولكن لن أبحث في أخطائها. قد تصبح زوجةً لريجينالد! معاذ الله! ولكن لماذا يجب أن أكون أقلَّ انتباهًا من أيِّ شخصٍ آخر؟ يعلن السَّيِّد فيرنن أنَّه لم ير أبدًا ضائقةً أعمق من التي هي فيها بعد استلامها الرِّسالة؛ وهل حكمه أصوب من حكمي؟ كانت غير راغبةٍ في السَّماح لفريدريكا بالمجيء إلى تشرشِل، وبقدرٍ كافٍ يبدو ذلك نوعًا من المكافأة على سلوكٍ يستحقُّ ما هو مختلفٌ تمامًا عن ذلك؛ ولكن كان من المستحيل اصطحابها إلى أيِّ مكانٍ آخر، وهي لن تبقى هنا طويلًا. «سيكون من الضَّروريِّ للغاية»، قالت لي، «كما تدركين، يا أختي العزيزة، أن

أتعامل مع ابنتي ببعض الحزم في أثناء وجودها هنا، وهي الضَّرورة الأكثر إيلاماً، ولكنَّني سأجتهد في التَّفرُّغ لها. أخشى أنِّي كنت متسامحةً جدًّا في كثيرٍ من الأحيان، ولكنَّ مزاج فريديريكا المسكينة ما كان ليحتمل العكس أبدًا: يجب أن تدعميني وتشجِّعيني؛ يجب أن تحثِّيني على ضرورة التَّوبيخ إن رأيتني متساهلةً للغاية». كلُّ هذا يبدو معقولًا تمامًا. ريجينالد غاضبٌ جدًّا من الفتاة السَّخيفة المسكينة. من المؤكَّد أنَّ الفضل لا يعود إلَّا إلى اللّيدي سوزان في أنَّه يشعر بالألم الشَّديد نحو ابنتها؛ ولا بدَّ أنَّ فكرته عنها مستمدَّةٌ من وصف الأم. حسنًا، مهما كان مصيره، فنحن مرتاحون لمعرفة أنَّنا بذلنا قصارى جهدنا لإنقاذه. يجب أن نسلِّم الأمر لقوَّةٍ أعلى.

ابنتُكِ المخلصةُ دومًا،

س. فيرنن

(16)

من اللّيدي سوزان إلى السَّيِّدة جونسون

تشرشِل

لم يستفزَّني طوال حياتي شيءٌ، يا عزيزتي أليسيا، مثلما استفزَّتني رسالة هذا الصَّباح من الآنسة سمرز. ابنتي الرَّهيبة تلك كانت تحاول الهرب. لم يكن لديَّ أيُّ فكرةٍ من قبل عن كونها شيطانةً صغيرةً، فقد كانت تبدو وكأنَّها تملك كلَّ براءة آل فيرنن. ولكنَّها حين تلقَّت الرِّسالة التي أعلنت فيها عن نيَّتي بشأن السِّير جيمس، حاولت الهرب بالفعل. على الأقلِّ، لا يمكنني أن أعتمد روايةً أخرى بخلاف ذلك. لقد قصدَتْ، على ما أظنُّ، أن تذهب إلى آل كلارك في ستافوردشر، لأنَّه ليس لديها معارف آخرون. ولكنَّها ستعاقَب على ذلك. لقد أرسلتُ تشارلز إلى المدينة ليصلح الأمور إن استطاع، فأنا لا أريدها هنا بأيِّ حالٍ من الأحوال. وإن لم تحتفظ بها الآنسة سمرز، عليكِ أن تجدي لي مدرسةً أخرى، ما لم نتمكَّن من تزويجها على الفور. لقد كتبت الآنسة سمرز رسالةً تفيد بأنَّها لم تستطع دفع الشَّابَّة إلى تحديد أيِّ سببٍ وراء سلوكها الاستثنائيِّ، وهو ما يؤكِّد لي تفسيري السَّابق. فريديريكا خجولةٌ جدًّا، على ما أظنُّ، وهي ترهب جانبي كثيرًا لتحكي لي قصصها، ولكن إن استطاعت طيبة عمِّها أن تُخرج منها

أيَّ شيءٍ، فلن أخشى شيئًا. أنا على يقينٍ من أنَّني سأكون قادرةً على جعل قصَّتي جيِّدةً مثل قصَّتها. إن كنتُ أُجدي في شيءٍ، فهو فصاحتي. فالاعتبار والتَّقدير يتبعان بالتَّأكيد أوامر اللُّغة كما يتربَّص الإعجاب بالجمال، وهنا لديَّ فرصةٌ كافيةٌ لممارسة موهبتي، إذ إنَّني أقضي جُلَّ وقتي في المحادثة.

ريجينالد ليس لطيفًا على الإطلاق ما لم نكن بمفردنا، وحين يكون الطقس مقبولًا نتمشَّى حذاءَ الشُّجيرات لساعاتٍ معًا. إنَّه يروقني كثيرًا بشكلٍ عامٍّ؛ فهو ذكيٌّ ولديه الكثير ليقوله، ولكنَّه أحيانًا صلفٌ ومزعج. هناك شيءٌ من الهشاشة السَّخيفة فيه يجعله يطلب شرحًا كاملًا لكلِّ ما سمعه عن عيوبي، ولا يرضى أبدًا حتى يعتقد أنَّه تيقَّن من بداية ونهاية كلِّ شيء. هذا نوعٌ من الحُبِّ، ولكنَّني أعترف بأنَّه لا يناسبني أنا بشكلٍ خاص. فأنا أفضِّل دائمًا الرُّوح الرَّقيقة والحرَّة في مينوارنغ، والتي، تأثُّرًا بالإيمان العميق بقيمتي، تبقى مقتنعةً بأنَّ كلَّ ما أقوم به لا بدَّ أن يكون على صواب؛ وأنظر بدرجةٍ من الازدراء إلى الأهواء الفضوليَّة والمريبة لذلك القلب الذي يبدو دائمًا منهمكًا في مناقشة عقلانيَّة عواطفه. إنَّ مينوارنغ متفوِّقٌ بالفعل، وبما لا يدع مجالًا للمقارنة، على ريجينالد ـ متفوِّقٌ في كلِّ شيءٍ ما عدا القدرة على الوجود معي! يا للمسكين! إنَّه مشتَّتٌ كثيرًا بسبب الغيرة التي لست آسفةً لها، لأنَّني لا أعرف أيَّ دعمٍ أفضل منها للحب. لقد كان يضايقني لأسمح له بالمجيء إلى هذه البلدة والسَّكن متخفِّيًا في مكانٍ ما

قريبٍ من هنا؛ ولكنَّني منعت أيَّ شيءٍ من هذا القبيل. فالنِّسوة لا يُعذرن حين يغفلن عن واجباتهنَّ ويتجاهلن رأيَ النَّاس فيهنَّ.

المخلصةُ لكِ دوماً،

س. فيرتون

(17)

من السَّيِّدة فيرنن إلى اللّيدي دي كورسي

تشرشِل

أمِّي العزيزة، ـ عاد السَّيِّد فيرنن ليلة الخميس مُحضِرًا ابنة أخيه معه. تلقَّت اللّيدي سوزان رسالةً منه قبل ذلك اليوم يخبرها فيها بأنَّ الآنسة سمرز رفضت تمامًا السَّماح ببقاء الآنسة فيرنن في أكاديميَّتها؛ ولذلك كنَّا مستعدِّين لوصولها وانتظرناها بفارغ الصَّبر طوال المساء. وصلا بينما كنَّا نحتسي الشَّاي، ولم أر أبدًا مخلوقاً يبدو خائفًا مثلما بدت فريدريكا حين دخلت الغرفة. استقبلتها اللّيدي سوزان برباطة جأشٍ تامَّةٍ ودون أن تُبدي أيَّ ملمحٍ من ملامح الرِّقَّة، وهي التي كانت تذرف الدُّموع قبل ذلك وتبدي قلقها الشَّديد من فكرة اللِّقاء بها. ولم تكلِّمها إلَّا لِمامًا، وحين انخرطت فريدريكا في البكاء بمجرَّد أن جلسنا، أخرجتها من الغرفة، ولم تعد لبعض الوقت. وحين فعلت، بدت عيناها حمراوَين للغاية وكانت مضطربةً كما كانت من قبل. لم نر ابنتها أكثر من ذلك. كان ريجينالد المسكين قلِقًا تمامًا من رؤية صديقته الجميلة في مثل هذه المحنة، وكان يراقبها بكثيرٍ من الاهتمام العطوف، لدرجة أنَّني كدت أفقد صبري تمامًا بعد أن ضبطتها لِمامًا تراقب وجهه مغتبطة. استمرَّ هذا التَّمثيل المثير للشَّفقة طوال

المساء، وقد أقنعني العرض الماكر والمبدع تمامًا بأنَّها لم تكن تشعر بأيِّ شيءٍ في الواقع. إنَّني غاضبةٌ منها أكثر من أيِّ وقتٍ مضى بعد أن رأيت ابنتها. فالفتاة المسكينة تبدو غير سعيدةٍ لدرجة أنَّ قلبي انفطر حزنًا عليها. من المؤكَّد أنَّ اللّيدي سوزان قاسيةٌ للغاية، إذ لا يبدو أنَّ لفريدريكا ذلك الطَّبع الذي يجعل القسوة ضروريَّة. إنَّها تبدو خجولةً تمامًا ومكتئبةً وتائهة. إنَّها جميلةٌ للغاية، مع أنَّها ليست بجمال والدتها، ولا تشبهها في شيءٍ على الإطلاق. فبشرتها ناعمةٌ، ولكنَّها ليست نقيَّةً ولا نضرةً مثل بشرة اللّيدي سوزان، ولها ملامح وجوه آل فيرنن، الوجه البيضاويُّ والعيون الدَّاكنة الخفيفة، وهناك عذوبةٌ غريبةٌ في مظهرها حين تتحدَّث إلى عمِّها أو إليَّ؛ ولأنَّنا نتصرَّف معها بلطفٍ، فقد حُزنا بالطَّبع على امتنانها.

ألمحت والدتها إلى أنَّ طباعها جامحةٌ، ولكنَّني لم أر قَطُّ وجهًا أقلَّ دلالةً على أيِّ تصرُّفٍ خبيثٍ من وجهها؛ وممَّا يمكن أن أراه من سلوك كلٍّ منهما نحو الأخرى، ومن صرامة اللّيدي سوزان المتواصلة وخيبة فريديريكا الصَّامتة، أميل إلى الاعتقاد حتى اللَّحظة بأنَّ الأولى لا تكنُّ حبًّا حقيقيًّا لابنتها، ولم تراعِ أبدًا مصلحتها أو تعاملها بحنان. لم أتمكَّن من إجراء أيِّ محادثةٍ مع الفتاة؛ إنَّها خجولةٌ، وأظنُّ أنَّني أستطيع أن أرى أنَّ بعض الجهود قد بذلت لمنعها من أن تكون معي. لا شيء مُرضٍ يثبت سبب هروبها. ربَّما كان عمُّها اللَّطيف خائفًا جدًّا من إزعاجها بطرح الكثير من الأسئلة في أثناء رحلتهما. وددتُ لو كان بإمكاني إحضارها بدلًا

منه. أظنُّ أنَّه كان بمقدوري معرفة الحقيقة خلال الرِّحلة التي استغرقت ثلاثين ميلًا. نُقل البيانو الصَّغير في غضون هذه الأيَّام القليلة، بناءً على طلب اللّيدي سوزان، إلى غرفة تبديل ملابسها، حيث تقضي فريدريكا جزءًا كبيرًا من نهارها هناك، تتدرَّب كما يقال؛ ولكنَّني نادرًا ما أسمع أيَّ ضوضاء حين أمرُّ بتلك الغرفة؛ ماذا تفعل الفتاة وحيدةً مع نفسها هناك، لا أعرف. هناك الكثير من الكتب، ولكن ليس كلُّ فتاةٍ كانت جامحةً في الخمسة عشر عامًا الأولى من حياتها يمكن أن تقرأ أو ستقرأ. يا للمخلوقة المسكينة! المنظر من نافذتها ليس في غاية الرَّوعة، لأنَّ تلك الغرفة تُطلُّ على الحديقة، كما تعلمين، مع الشُّجيرات على جانبٍ واحدٍ، حيث يمكنها أن ترى والدتها تتمشَّى لمدَّة ساعةٍ منهمكةً في محادثةٍ جادَّةٍ مع ريجينالد. كان من شأن فتاةٍ في عمر فريدريكا أن تكون طفوليَّةً بالفعل، لو لم تصدمها مثل هذه الأشياء. أليس من غير المبرَّر إعطاء مثلٍ كهذا لابنة؟ ومع ذلك، ما يزال ريجينالد مقتنعًا بأنَّ اللّيدي سوزان هي أفضل الأمَّهات، وما يزال يُدين فريدريكا كفتاةٍ لا قيمة لها! إنَّه مقتنعٌ بأنَّ محاولتها الفرار لم تنطلق من أيِّ سببٍ مبرَّرٍ، ولم يكن لها أيُّ محفِّز. أنا على يقينٍ من أنَّني لا أستطيع القول إنَّ ذلك كان هكذا، فحين تعلن الآنسة سمرز أنَّ الآنسة فيرنن لم تُظهر أيَّ علاماتٍ على العناد أو الانحراف خلال إقامتها الكاملة في شارع ويغمور، حتى ضُبِطَتْ في هذا المخطَّط، لا يمكنني أن أركن بسهولةٍ إلى ما تريد اللّيدي سوزان أن تجعله، وما تريد أن تجعلني أصدِّق، أنَّه كان مجرَّد نفاد صبرٍ في ضبط النَّفس والرَّغبة في الهروب من دروس المعلِّمة ما خلق في رأسها فكرة الفرار.

أوه يا ريجينالد، كيف استُعبِدَتْ بصيرتُك! إنَّه لا يجرؤ على السَّماح لها بأن تكون جميلةً، وحين أتحدَّث عن جمالها، لا يجيب سوى بأنَّ عينيها يعوزهما الذَّكاء! في بعض الأحيان يكون متأكِّدًا من أنَّها تفتقر إلى الفهم، وفي أحيانٍ أخرى من أنَّ العيب في مزاجها فحسب. باختصارٍ، حين يكون الشَّخص مخدوعًا دومًا، فمن المستحيل أن يكون منسجمًا مع نفسه. تجد اللّيدي سوزان أنَّه من الضَّروريِّ أن تُلام فريدريكا وحدها، وربَّما حكمت أحيانًا أنَّه من المناسب أن تعذر سوء خلقها، وربَّما تأسَّفت أحيانًا لفقدانها الشُّعور. وريجينالد لا يفعل سوى ترديد ما تقوله سموُّها.

ابنتكِ المخلصة دومًا،

كاثرين فيرنن

(18)

من المرأة نفسها إلى المرأة نفسها

تشرشِل

أمِّي العزيزة، ـ يسعدني جدًّا أن أجد أنَّ وصفي لفريديريكا فيرنن قد أثار اهتمامك، لأنَّني أظنُّ أنَّها تستحقُّ حقًّا احترامكِ؛ وحين عبَّرت عن الفكرة التي خطرت لي أخيرًا، كانت انطباعاتك اللَّطيفة في صفِّها، وأنا على يقينٍ من أنَّها ستزداد. لا يسعني إلَّا أن أتخيَّل أنَّها تزداد ميلًا إلى أخي. كثيرًا ما رأيت عينيها مثبَّتتين على وجهه مع تعبيرٍ ملحوظٍ عن الإعجاب المستغرق في التَّفكير. إنَّه بالتَّأكيد وسيمٌ للغاية. وأكثر من ذلك، ثمَّة في طبيعته صراحةٌ لا شكَّ أنَّها ساحرةٌ جدًّا، وأنا على يقينٍ من أنَّها تحسُّ ذلك. مستغرقًا في التَّفكير والتَّأمُّل بشكلٍ عامٍّ، يضيء وجهها دائمًا بابتسامةٍ حين يقول ريجينالد أيَّ شيءٍ ظريفٍ، وإن كان الموضوع جدِّيًّا لدرجة أنَّه قد يحصر فكرَه فيه، أخطئ كثيرًا إن فاتها مقطعٌ من حديثه. وأنا أريد أن أجعله واعيًا بكلِّ هذا، لأنَّنا نعرف قوَّة الامتنان على قلبٍ مثل قلبه؛ ويمكن لعاطفة فريدريكا التي لا تعرف المكر أن تُبعده عن والدتها، وقد نبارك اليوم الذي جاءت فيه إلى تشرشِل. أعتقد يا أمِّي العزيزة أنَّكِ لن ترفضيها كابنةٍ لك. من المؤكَّد أنَّها يافعةٌ للغاية، وقد تلقَّت تعليمًا بائسًا، ومثالًا

مخيفًا على الطَّيش في سلوك والدتها. ولكن مع ذلك، أستطيع أن أبوح لكِ بأنَّ سلوكها ممتاز، ومؤهِّلاتها الفطريَّة جيِّدةٌ جدًّا. ومع أنَّه ليس لها أيُّ إنجازاتٍ، إلَّا أنَّها ليست جاهلةً بأيِّ حالٍ من الأحوال كما قد يتوقَّع المرء أن يجدها، كونها مولعةً بالكتب وقضاء الوقت في القراءة. والدتها تتركها وحدها أكثر ممَّا ترغب، وأنا أُبقيها معي قدر الإمكان، وقد بذلتُ جهدًا كبيرًا لكسر حيائها. نحن صديقتان مقرَّبتان جدًّا، ومع أنَّها لم تفتح فمها أبدًا أمام والدتها، إلَّا أنَّها تتحدَّث بما يكفي حين تكون بمفردها معي لتوضِّح لي أنَّها ستبدو دائمًا أفضل بكثيرٍ ممَّا هي عليه، إن عاملتها اللّيدي سوزان بشكلٍ صحيح. لا يمكن أن يكون هناك قلبٌ أكثر رقَّةً وحنانًا من قلبها، أو سلوكٌ أكثر تهذيبًا من سلوكها، حين تتصرَّف دون قيود؛ وأبناء عمومتها الصِّغار مغرمون بها.

ابنتكِ المحبَّة،

ك. فيرنن

(19)

من اللّيدي سوزان إلى السَّيِّدة جونسون

تشرشِل

أعرف أنَّك متلهِّفةٌ إلى سماع المزيد عن فريدريكا، وربَّما ظننتِني مهملةً بعدم الكتابة لك قبل الآن. لقد وصلت مع عمِّها يوم الخميس الماضي قبل أسبوعين، وحينئذٍ، بالطَّبع، لم أُضِعْ أيَّ وقتٍ في المطالبة بمعرفة السَّبب وراء سلوكها. وسرعان ما وجدت نفسي محقَّةً تمامًا في عزوه إلى رسالتي الخاصَّة. لقد أزعجها كلِّيًّا احتمال ذلك، لدرجة أنَّها، بمزيجٍ من الانحراف الحقيقيِّ والحماقة الصِّبيانيَّة، عزمت على الخروج من المنزل والمضيِّ مباشرةً إلى أصدقائها، آل كلاركس؛ وقد طوت بالفعل مسافةَ شارعين في مسيرها حين افتُقدت لحسن الحظِّ ولُوحقت وأُمسِكَ بها. كانت هذه أوَّل مأثرةٍ مميَّزةٍ للآنسة فريدريكا فيرنن. وإذا وضعنا في الاعتبار أنَّها حقَّقتها في سنِّ السَّادسة عشرة، كان لدينا مجالٌ لأكثر التَّنبُّؤات تفاؤلًا بنجاحها في المستقبل. لقد استفزَّني بشكلٍ مفرطٍ، مع ذلك، استعراض اللِّياقة الذي منع الآنسة سمرز من الاحتفاظ بالفتاة؛ وإنَّه ليبدو حكمًا دقيقًا للغاية، بالنَّظر إلى روابط ابنتي العائليَّة، أنَّني لا أستطيع إلَّا أن أفترض أنَّ اللّيدي محكومة بالخوف من عدم الحصول على أموالها أبدًا. وأيًّا كان الأمر، لقد أعيدت

فريدريكا على يديَّ؛ ولأنَّها لا تجد أيَّ شيءٍ آخر تفعله، فهي مشغولةٌ بمتابعة الخطط الرُّومانسيَّة التي بدأت في لانغفورد. إنَّها في الواقع تقع في حبِّ ريجينالد دي كورسي! فعصيان والدتها برفضها عرضًا رائعًا لم يكفها، بل أخذت، فوق ذلك، تمنح عواطفها دون موافقة والدتها. لم أر قَطُّ فتاةً في سنِّها تعرض نفسها أكثر منها لتكون تسليةً بين النَّاس. إنَّ مشاعرها قويَّةٌ بشكلٍ واضح، وهي ساذجةٌ للغاية إذ تعرضها وتعطي صورةً جليَّةً عن مدى سخافتها، صورةً يحتقرها كلُّ رجلٍ يراها.

إنَّ السَّذاجة لا تُجدي أبدًا في أمور الحبِّ؛ وتلك الفتاة ولدت ساذجةً إمَّا طبعًا وإمَّا تكلُّفًا. لست على يقينٍ بعد من أنَّ ريجينالد يرى ما تخطِّط له، ولا إن كانت له عواقب كبيرة. هو الآن غير مبالٍ نحوها، وستكون موضع ازدراءه إن فطن لعواطفها. جمالها مقدَّرٌ عند آل فيرنن، ولكن ليس له تأثيرٌ عليه. وهي تحبُّ زوجةَ عمِّها كثيرًا، لأنَّها لا تشبهني كثيرًا بالطَّبع. وهي حرفيًّا رفيقة اللّيدي فيرنن التي تحبُّ بشدَّةٍ أن تكون حازمةً وأن تحتفظ لنفسها بكلِّ الفهم وكلِّ الفكاهة في المحادثة: لن تتفوَّق فريدريكا عليها أبدًا. حين أتت لأوَّل مرَّةٍ كنتُ قد بذلت بعض الجهد لمنعها من رؤية زوجة عمِّها كثيرًا. ولكنَّني تساهلت، إذ ظننت أنَّني قد أعتمد عليها في مراقبة القواعد التي حدَّدْتُها للتَّعامل بينهما. ولكن لا تتخيَّلي مع كلِّ هذا التَّساهل أنَّني تخلَّيت لحظةً عن خططي لتزويجها. كلَّا؛ أنا مصمِّمةٌ بشكلٍ حازمٍ على هذه النُّقطة، مع أنَّني لم أقرِّر تمامًا بعد طريقةَ تحقيق ذلك. لا

يجب أن أختار مناقشةَ الأمر هنا والاستماعَ إلى حكمة السَّيِّد والسَّيِّدة فيرنن؛ ولا يمكنني الذَّهاب إلى المدينة الآن. لذا يجب أن ينتظر موضوعُ الآنسة فريدريكا قليلًا بعد.

المخلصةُ لكِ دومًا،

س. فيرنن

(20)

من السَّيِّدة فيرنن إلى اللّيدي دي كورسي

تشرشِل

أمِّي العزيزة، ـ لقد زارنا في الظَّرف الرَّاهن ضيفٌ غير متوقَّعٍ أبدًا: وصل البارحة. سمعت العربة عند الباب بينما كنت جالسةً مع أطفالي في أثناء تناول العشاء. وبافتراض أنَّهم سينادونني، غادرت الأطفال بعد ذلك بقليلٍ، وكنت في منتصف الطَّريق إلى الطَّابق السُّفليِّ حين جاءت فريدريكا، شاحبةً كالرَّماد، وهرعت مسرعةً إلى غرفتها. تبعتها على الفور، وسألتها ما الأمر. «ياه»! قالت، «لقد أتى ـ لقد جاء السِّير جيمس، ماذا أفعل»؟ لم يكن هذا مفهومًا. فتوسَّلت إليها أن تخبرني ما الذي تعنيه. في تلك اللَّحظة قطعَ حديثنا قرعٌ على الباب: كان ريجينالد الذي جاء بتوجيهٍ من اللّيدي سوزان ليدعو فريديريكا إلى النُّزول. «إنَّه السَّيِّد دي كورسي»!، فقالت وقد امتقع وجهها تمامًا، «لقد أرسلته ماما؛ يجب أن أذهب». ذهبنا جميعًا؛ ورأيت أخي يتفحَّص وجه فريدريكا المرتعب من المفاجأة. في غرفة الإفطار، وجدنا اللّيدي سوزان وشابًّا ذا مظهرٍ نبيلٍ قدَّمته باسم السِّير جيمس مارتن ـ وهو الشَّخص نفسه، كما قد تتذكَّرين، الذي قالت إنَّه كان يعاني آلام الانفصال عن الآنسة مينوارنغ. ولكنَّ ذلك المخطَّط، على ما

يبدو، لم يكن مصمَّمًا لها، أو ربَّما كانت قد نقلته منذ ذلك الحين إلى ابنتها؛ ذلك أنَّ السِّير جيمس الآن في حالة حبٍّ شديدٍ مع فريدريكا، وبتشجيعٍ كاملٍ من أمِّها. أنا على يقينٍ من أنَّ الفتاة المسكينة تكرهه. ومع أنَّ شخصه ومظهره جيِّدان للغاية، إلَّا أنَّه يبدو، لي وللسَّيِّد فيرنن على السَّواء، شابًّا ضعيفًا جدًّا. بدت فريدريكا خجولةً ومرتبكةً جدًّا حين دخلنا الغرفة، فأشفقت عليها إلى حدٍّ كبير. تصرَّفت اللّيدي سوزان باهتمامٍ كبيرٍ نحو زائرها. ومع هذا أظنُّ أنَّني أدركت أنَّها لم تكن سعيدةً تمامًا برؤيته. تحدَّث السِّير جيمس كثيرًا، وقدَّم لي العديد من الأعذار الدَّمثة عن إعطاء نفسه الحرِّيَّة في القدوم إلى تشرشِل ـ وهو يمزج حديثه بالضَّحك بشكلٍ متكرِّرٍ وأكثر ممَّا هو مطلوب ـ قائلًا أشياء كثيرةً مرارًا وتكرارًا، وأخبر اللّيدي سوزان ثلاث مرَّاتٍ أنَّه التقى اللّيدي جونسون قبل أمسياتٍ قليلة. وخاطب فريدريكا بين الحين والآخر ولكنَّه خاطب والدتها أكثر. جلست الفتاة المسكينة طوال الوقت دون أن تنبس ببنت شفةٍ ـ عيناها تنظران إلى أسفل ولونها يتغيَّر في كلِّ لحظة. بينما لاحظ ريجينالد كلَّ ما يحدث في صمتٍ تامٍّ. بعد فترةٍ طويلةٍ اقترحت اللّيدي سوزان، متعَبةً على ما أعتقد من وضعها، أن نتمشَّى؛ فتركنا السَّيِّدَين معاً لنلبس معاطفنا. وحين صعدنا إلى الطَّابق العلويِّ، توسَّلت اللّيدي سوزان إليَّ أن تبقى معي لبضع لحظاتٍ في غرفة تبديل الثِّياب، إذ كانت حريصةً على التَّحدُّث إليَّ على انفراد. وقدتها إلى هناك بناءً على ذلك، وبمجرَّد ما أغلقنا الباب، قالت لي: « لم أفاجأ أبدًا في حياتي أكثر من مفاجأتي بقدوم السِّير جيمس، وإنَّ مفاجأة قدومه تقتضي بعض

الاعتذار لك، يا سِلْفَتي العزيزة، مع أنَّها سارَّةٌ للغاية بالنِّسبة إليَّ كأمٍّ. إنَّه متعلِّقٌ بشدَّةٍ بابنتي لدرجة أنَّه لم يعد يستطيع العيش دون رؤيتها. السِّير جيمس شابٌّ ذو سلوكٍ لطيفٍ وشخصيَّةٍ باهرةٍ؛ سوى بعض الهذر ربَّما، ولكنَّ عامًا أو عامين كفيلان بتصحيح ذلك: وهو في نواحٍ أخرى مؤهَّلٌ جدًّا ليكون لائقًا بفريدريكا، لدرجة أنَّني نظرت دائمًا إلى ارتباطهما بأكبر قدرٍ من الاستحسان؛ وأنا مقتنعةٌ بأنَّكِ وزوجك ستمنحان هذه المصاهرةَ استحسانكما الدَّافئ. لم يسبق لي أن ذكرت من قبل احتماليَّة حدوث ذلك لأيِّ شخصٍ، لأنَّني ظننت أنَّه من الأفضل ألَّا أعدَّه أمرًا واقعًا ما دامت فريدريكا في المدرسة؛ ولكن الآن، وأنا مقتنعةٌ بأنَّ فريدريكا أكبر من أن تخضع لحبس المدرسة، بدأتُ أرى ارتباطها بالسِّير جيمس أمرًا غير بعيد المنال، وكنت أنوي في غضون أيَّامٍ قليلةٍ أن أفاتحك والسَّيِّد فيرنن بالأمر بأكمله. وأنا على يقينٍ، يا سِلْفَتي العزيزة، من أنَّكما ستعذران بقائي صامتةً لفترةٍ طويلةٍ، وستوافقاني على أنَّ مثل هذه الظُّروف لا يمكن إخفاؤها مهما بلغت درجة الحذر طالما هناك أيُّ شكٍّ. حين تنالين سعادةَ منح كاثرين الصَّغيرة اللَّطيفة، بعد بضع سنواتٍ مقبلةٍ، لرجلٍ لا يُضاهى في المكانة والشَّخصيَّة، ستعرفين ما أشعر به الآن؛ ومع ذلك، حمدًا للَّه، لن تكون لديكِ كلُّ الأسباب التي تجعلني أفرح بمثل هذا الحدث. فكاثرين يتوفَّر لها ما ترغب فيه بشكلٍ وافٍ، وليست مثل ابنتي فريدريكا المدينة للظُّروف المواتية في نيل وسائل الرَّاحة في الحياة». واختتمت حديثها طالبةً مباركتي. وقد منحتها

إيَّاها إلى حدٍّ ما، على ما أعتقد، لأنَّ الكشف المفاجئ، في الواقع، عن هذا الأمر المهمِّ جدًّا قد حبس لساني عن الكلام بأيِّ وضوح.

ومع ذلك، شكرتني بأشدِّ المودَّة على قلقي اللَّطيف على راحتها وراحة ابنتها، ثمَّ قالت: «أنا لست مناسبةً للتَّعامل في هذه الأمور يا عزيزتي اللّيدي فيرنن، ولم يكن لديَّ أبدًا الموهبة المناسبة لبيان أثر الأحاسيس الغريبة على قلبي. ولذلك أنا واثقةٌ من أنَّك ستصدقِّينني حين أعلن أنِّي، بقدر ما سمعت في مديحك قبل أن أعرفك، لم أتخيَّل أبدًا أنَّني سأحبُّك كما أفعل الآن؛ ويجب أن أقول كذلك إنَّ صداقتك نحوي مفرحةٌ بشكلٍ خاصٍّ لأنَّ لديَّ السَّبب للاعتقاد بأنَّ بعض المحاولات جرت لتأليبك ضدِّي. أتمنَّى فقط أن يتمكَّنوا، أيًّا كانوا أولئك الذين أدين لهم بهذه النَّوايا الطَّيِّبة، من رؤية الاتِّفاق الذي نحن عليه الآن معًا، ومن فهم المودَّة الصَّادقة التي تشعر بها إحدانا تجاه الأخرى؛ ولكنَّني لن أؤخِّرك أكثر من هذا. بارك الله فيك لتمنِّيك الخير لي ولفتاتي ولتدم لك كلُّ سعادتك الرَّاهنة».

ماذا يمكن للمرء أن يقول عن مثل هذه المرأة، يا أمِّي العزيزة؟ يا لهذه الجدِّيَّة، يا لهذا الوقار في التَّعبير! ومع ذلك لا يسعني سوى الشَّكِّ في حقيقة كلِّ ما تقوله، أمَّا بالنِّسبة إلى ريجينالد، فأظنُّه لا يعرف ماذا يفعل بهذا الشَّأن. حين جاء السِّير جيمس، بدا في غاية الدَّهشة والحيرة؛ فحماقة الشَّابِّ وارتباك فريدريكا شوَّشاه كلِّيًّا. ورغم تأثُّره بحديثه الخاصِّ مع اللّيدي سوزان في ذلك الحين، إلَّا أنَّه بقي يتألَّم، وأنا على يقينٍ من ذلك، من سماحها لمثل هذا الرَّجل بالاهتمام بابنتها. دعا السِّير جيمس نفسه برباطة جأشٍ كبيرةٍ للبقاء معنا بضعة أيَّام ـ آملًا ألَّا نرى

الأمر غريبًا، إذ كان يعلم أنَّها صفاقةٌ كبيرةٌ أن يأخذ حرِّيَّته كما لو كان واحدًا من أهل البيت؛ وخلص في النِّهاية، متمنِّيًا وهو يضحك، أن يكون في القريب العاجل واحدًا من أهل البيت. حتى اللّيدي سوزان بدت مرتبكةً قليلًا من هذه الجسارة، وأنا مقتنعةٌ أنَّها تمنَّت من قلبها وبصدقٍ أن يرحل. ولكن يجب القيام بشيءٍ ما لهذه الفتاة المسكينة، إن كانت مشاعرها كما نظنُّها أنا وعمُّها. يجب ألَّا يُضَحَّى بها من أجل المصلحة أو الطُّموح، ويجب ألَّا تُترَك لتعاني الهلع من ذلك. فالفتاة التي يمكن أن يميل قلبها إلى ريجينالد دي كورسي تستحقُّ، رغم تجاهله القاسي، مصيرًا أفضل من أن تكون زوجةً للسِّير جيمس مارتن. وبمجرَّد أن أختلي بها، سأكتشف الحقيقة الصَّادقة. ولكن يبدو أنَّها ترغب في تجنُّبي. آمل ألَّا يكون هذا ناشئًا عن خطأٍ ما، وألَّا أعرف أنَّني بالغت في قلقي عليها. من المؤكَّد أنَّ سلوكها تجاه السِّير جيمس يشي بقدرٍ كبيرٍ من الوعي والارتباك، وهو ما لا أرى فيه على الإطلاق ما يمنح التَّشجيع. وداعًا، أمِّي العزيزة.

المخلصةُ لكِ،

كاثرين فيرنن

(21)

من الآنسة فيرنن إلى السَّيِّد دي كورسي

سيِّدي، أرجو أن تعذر حرِّيَّتي هذه. فلقد أجبرتني على ذلك محنةٌ عصيبةٌ، ولولا ذلك لخجلت من إزعاجك. أنا قانطةٌ للغاية بشأن السِّير جيمس مارتن، ولا طريقة أخرى لديَّ في هذا العالم لمساعدة نفسي إلَّا بالكتابة إليك، لأنَّني ممنوعةٌ حتى من التَّحدُّث إلى عمِّي وزوجته حول هذا الموضوع؛ والحال هذه، أخشى أنَّ لجوئي إليك قد يؤدِّي إلى سوء فهمٍ بأنَّني أستكين إلى الرِّسالة وليس إلى روح أوامر ماما. ولكن إن لم تقف إلى جانبي وتقنعها بالعدول عن ذلك، فسأصبح نصف مجنونةٍ، لأنَّني حقًّا لا أستطيع تحمُّله. لا يوجد إنسانٌ سواك يمكن أن يملك أيَّ فرصةٍ للتَّأثير فيها. وإن فعلت، أي تكرَّمت بلطفك الكبير الذي لا يوصف وتكلَّمت نيابةً عنِّي، كي تقنعها بإبعاد السِّير جيمس، فسأكون مدينةً لك أكثر ممَّا يمكنني التَّعبير عنه. لطالما أبغضته منذ البداية: إنَّها ليست نزوةً مفاجئةً، أؤكِّد لك يا سيِّدي. لطالما وجدته سخيفًا وغير حكيمٍ وغير مقبولٍ، والآن صار أسوأ ممَّا كان عليه في أيِّ وقتٍ مضى. وإنَّني أفضِّل أن أعمل من أجل لقمة عيشي على أن أتزوَّجه. لا أعرف كيف أعتذر بما يكفي عن هذه الرِّسالة؛ أعلم أنَّني أخذت حرِّيَّتي أكثر ممَّا ينبغي. وأعلم أنَّ أمِّي ستغضب أشدَّ الغضب، ولكن لا بدَّ لي من المجازفة.

خادمتك الأكثر تواضعًا،

ف. س. ف

(22)

من اللّيدي سوزان إلى السَّيِّدة جونسون

تشرشِل

هذا لا يطاق! يا أعزَّ صديقاتي، لم يغضبني شيءٌ هكذا من قبل، وعليَّ أن أريح نفسي بالكتابة إليك، أنت التي أعرف أنَّكِ ستفهمين كلَّ مشاعري. من تظنِّين أتى يوم الثُّلاثاء سوى السِّير جيمس مارتن؟! خمِّني مقدار دهشتي وتضايقي ـ فكما تعلمين جيِّدًا، لم أرغب أبدًا في رؤيته في تشرشِل. يا له من أمرٍ مؤسفٍ ألَّا أتمكَّن من معرفة نواياه! فهو لم يكتفِ بالقدوم، بل دعا نفسه في الواقع للبقاء هنا لبضعة أيَّام. أودُّ تسميمه! ولكن مع ذلك، استفدت من كلِّ هذا وقصصتُ قصَّتي بنجاحٍ كبيرٍ على اللّيدي فيرنن التي، أيًّا تكن مشاعرها الحقيقيَّة، لم تقل شيئًا يعارضني. لقد شدَّدتُ أيضًا على فريدريكا بأن تتصرَّف بشكلٍ مهذَّبٍ مع السِّير جيمس، وأفهمتها أنَّني عازمةٌ تمامًا على زواجها به. لقد قالت شيئًا عن بؤسها، ولكن هذا كان كلَّ شيء. لقد أصبحتُ منذ بعض الوقت أكثر إصرارًا على رؤية هذا الزَّواج يتحقَّق لما رأيته من زيادةٍ سريعةٍ في عاطفتها نحو ريجينالد، ولعدم تأكُّدي من أنَّ إدراكه لهذه العاطفة لن يوقظ في النِّهاية عاطفةً مقابلة. وحتى لو كان بناءُ مشاعرهما على التَّعاطف سيجعلهما

يستحقَّان الازدراء في عينيَّ، لم أكن على يقينٍ البتَّة من أنَّ مثل هذا الشَّيء لا يمكن أن يحدث. صحيحٌ أنَّ ريجينالد لم يكن باردًا تجاهي بأيِّ حالٍ من الأحوال؛ ولكنَّه مع ذلك أتى في الآونة الأخيرة على ذِكْرِ فريدريكا عفوَ الخاطر ودون قصد، وذات مرَّةٍ قال شيئًا في مدحها. لقد كان مندهشًا تمامًا من ظهور زائري، وفي البداية راقب السِّير جيمس باهتمامٍ أسعدني أن أراه غير ممزوجٍ بالغيرة؛ ولكن لسوء الحظِّ، كان مستحيلًا بالنِّسبة إليَّ أن أعذِّبه، لأنَّ السِّير جيمس، رغم تودُّده الزَّائد إليَّ، سرعان ما جعل الجميع يفهمون أنَّ قلبه كان مخصَّصًا لابنتي. لم أجد صعوبةً كبيرةً في إقناع دي كورسي، حين كنَّا بمفردنا، بأنَّني كنت محقَّةً تمامًا، مع أخذ كلِّ شيءٍ بالحسبان، في رغبتي في إتمام هذا الزَّواج؛ وبدا الأمر بأكمله مدبَّرًا دون عناء. لم يكن بوسع أيٍّ منهما إلَّا أن يلاحظ أنَّ السِّير جيمس لم يكن حكيماً؛ ولكنَّني منعت فريدريكا منعًا باتًّا من الشَّكوى إلى تشارلز فيرنن أو زوجته، ولذلك لم يكن لديهما أيُّ حجَّةٍ للتَّدخُّل، مع أنَّ سِلْفَتي الوقحة كانت تتحيَّن الفرصة للقيام بذلك كما أظنُّ. كلُّ شيءٍ كان يسير بهدوءٍ ودون ضجيج. ومع أنَّني كنت أحصي ساعات إقامة السِّير جيمس، إلَّا أنَّ ذهني كان راضيًا تمامًا عن مجرى الأمور. تخيَّلي، إذن، ما يجب أن أشعر به حيال الاختلال المفاجئ لجميع مخطَّطاتي، ومن حيث لم أكن أحتسب أيضاً. جاء ريجينالد هذا الصَّباح إلى غرفة تبديل الملابس الخاصَّة بي تعلو وجهه جدِّيَّةٌ غير معهودةٍ، وبعد الدِّيباجة أبلغني بكلماتٍ لا لبس فيها أنَّه يرغب في أن يناقش معي عدم اللِّياقة وعدم اللُّطف في سماحي للسِّير جيمس

مارتن بالحديث مع ابنتي خلافًا لرغبتها. شُدِهْتُ تمامًا. وحين وجدت أنَّه جادٌّ في كلامه، استجديته بهدوءٍ تفسيرًا، وأردت أن أعرف ما الذي دفعه إلى تأنيبي، ومن الذي كلَّفه بذلك. فأخبرني، مازجًا خطابه ببضع مجاملاتٍ وقحةٍ وتعبيراتٍ عن الرِّقَّة في غير محلِّها، والتي استمعت إليها بلامبالاةٍ كاملةٍ، أنَّ ابنتي أبلغته ببعض الظُّروف المتعلِّقة بها، وبالسِّير جيمس، وبي، الأمر الذي أزعجه للغاية. باختصارٍ، اكتشفت أنَّها كانت قد كتبت له أوَّلًا تطلب تدخُّله، وأنَّه حين تلقَّى رسالتها، تحدَّث معها حول الموضوع كي يفهم التَّفاصيل ويقف بنفسه على رغباتها الحقيقيَّة. ليس لديَّ أدنى شكٍّ في أنَّ الفتاة اغتنمت هذه الفرصة لتتبادل الغزل الصَّريح معه. أنا على يقينٍ من ذلك من الطَّريقة التي تحدَّث بها عنها. أيُّ نفعٍ قد يجلبه هذا الحبُّ له! سأحتقر دائمًا الرَّجُلَ الذي يمكن أن يُسَرَّ بعاطفةٍ لم يرغب أبدًا في إثارتها أو التماسها. سأبغضهما دائمًا. لا يمكن أن يكون لي عنده أيُّ اعتبارٍ، وإلَّا ما كان ليصغي إليها؛ وهي، بقلبها الصَّغير الجامح ومشاعرها السَّاذجة، تأتمن شابًّا لم تكد تتبادل معه كلمتين من قبل على نفسها! إنَّني مذهولةٌ من وقاحتها ومن سرعة تصديقه لها على السَّواء. كيف تجرَّأ على تصديق ما قالته له في ذمِّي! أما كان من المفترض أن يكون متأكِّدًا من أنَّ لديَّ بالتَّأكيد دوافع مُفحِمَةً لكلِّ ما فعلتُه؟ أين كانت ثقته بحكمتي وحسن تقديري حينذاك؟ أين امتعاضه، الذي يمليه الحبُّ الحقيقيُّ، من الشَّخص الذي يشوِّهني - وذلك الشَّخص، أيضًا، طفلةٌ غِرَّةٌ بلا موهبةٍ أو تعليمٍ، طفلةٌ لطالما تعلَّم ألَّا يحفل بها؟ بقيتُ هادئةً لبعض الوقت. ولكنَّ صبري قد ينفد، وآمل أن أبقى قويَّةً بما

فيه الكفاية بعد ذلك. لقد سعى طويلًا لتهدئة سخطي. ولكنَّها حمقاء في الواقع تلك المرأة التي بعد أن تُهان بالاتِّهام يمكن أن تهدأ بالمجاملات.

في النِّهاية تركني غاضبًا بقدر ما كنتُ غاضبةً؛ ولكنَّه أظهر غضبه أكثر منِّي. كنت هادئةً جدًّا، أمَّا هو فقد أفسح المجال لأشدِّ علامات الغضب عنفًا. لذلك، أتوقَّع أن يخمدَ غضبُه في أسرع وقتٍ ممكنٍ، وقد يختفي إلى الأبد، في حين سيبقى غضبي حاضرًا وعنيدًا. إنَّه الآن معتكفٌ في غرفته، حيث سمعته يتَّجه بعد أن غادر غرفتي. كم هو مزعجٌ ما يدور في خلده، يمكنكِ أن تتخيَّلي! ولكنَّ مشاعر بعض النَّاس غير مفهومة. لم أهدأ حتى الآن بما يكفي لرؤية فريدريكا. فهي لن تنسى قريباً أحداث هذا اليوم؛ وسوف تكتشف أنَّها حكت قصَّة حبِّها الرَّقيقة عبثًا، وعرَّضت نفسها لازدراء العالم بأجمعه إلى الأبد، وأثارت نقمة والدتها المجروحة.

المحِبَّة لكِ،

س. فيرنن

(23)

من السَّيِّدة فيرنن إلى اللّيدي دي كورسي

تشرشِل

اسمحي لي أن أهنِّئك يا أمِّي الغالية! فالقضيَّة التي جلبت علينا الكثير من القلق تقترب من خاتمةٍ سعيدة. إنَّ توقُّعاتنا ورديَّةٌ للغاية، ولأنَّ الأمور أخذت الآن منعطفًا إيجابيًا، فأنا آسفةٌ تمامًا لأنَّني نقلت مخاوفي إليك؛ ولكنَّ فرحةَ معرفةِ أنَّ الخطر قد زال، ربَّما كان ثمنها كلَّ ما عانيتِ من قبل. إنَّني مفعمةٌ بالبهجة لدرجة أنَّني بصعوبةٍ أستطيع الإمساك بالقلم؛ ولكنَّني عازمةٌ على إرسال بضعة أسطرٍ قصيرةٍ عن جيمس لكي يكون لديك بعض التَّفسير لما سوف يذهلك كثيرًا، وأعني عودة ريجينالد إلى باركلاندز. كنت جالسةً قبل حوالي نصف ساعةٍ مع السِّير جيمس في صالة الإفطار حين ناداني أخي من خارج الغرفة. رأيت على الفور أنَّ شيئًا ما قد حصل؛ فقد كان وجهه محمرًّا، وتحدَّث بانفعالٍ كبير. أنت تعرفين طريقته اللَّهفى، يا أمِّي الغالية، حين يكون باله مشغولًا. قال: «اسمعي يا كاثرين، أنا ذاهبٌ إلى المنزل اليوم، يؤسفني أن أتركك، ولكن يجب أن أذهب: لقد مضى وقتٌ طويلٌ منذ أن رأيت والدي ووالدتي. سأرسل جيمس على الفور قبلي مع الخيول، فإن كانت لديك أيُّ رسالةٍ إليهما، يمكنه أن

يأخذها. لن أكون في المنزل قبل الأربعاء أو الخميس، لأنَّني سأمرُّ بلندن، فلديَّ هناك ما أفعله؛ ولكن قبل أن أتركك»، تابعَ، متحدِّثًا بنبرةٍ أخفض، وبجهدٍ أكبر، «يجب أن أحذِّرك من شيءٍ واحدٍ ـ لا تدعي فريدريكا فيرنن تشعر بالتَّعاسة بسبب مارتن. إنَّه يريد أن يتزوَّجها، وأمُّها موافقةٌ، ولكنَّها لا تستطيع تحمُّل تلك الفكرة. كوني على يقينٍ من أنَّني أتحدَّث من إيقانٍ كاملٍ بحقيقة ما أقوله؛ أعلم علم اليقين أنَّ فريدريكا صارت تعيسةً بسبب استمرار مكوث السِّير جيمس هنا. إنَّها فتاةٌ جميلةٌ وتستحقُّ مصيرًا أفضل. أبعديه عنها على الفور؛ إنَّه مجرَّد أحمق: أمَّا ما تقصده والدتها، فالسَّماوات وحدها تعلمه! إلى اللِّقاء»، ثمَّ صافحني بجدِّيَّة. «لا أعرف متى سترونني مرَّةً أخرى؛ ولكن تذكَّري ما أقوله لك عن فريدريكا؛ يجب أن تجعلي مهمَّتك تحقيق العدالة لها. إنَّها فتاةٌ لطيفةٌ، ولها عقلٌ أفضل بكثيرٍ ممَّا ظننَّا». ثمَّ تركني، وهرع إلى الطَّابق العلوي. لم أحاول إيقافه، لأنَّني أعرف ما يجب أن تكون عليه مشاعره. أمَّا عن مشاعري، وأنا أُصغي إليه، فلستُ في حاجةٍ إلى محاولة وصفها؛ لقد جمدتُ في المكان نفسه لدقيقةٍ أو دقيقتين، وقد تملَّكتني دهشةٌ من النَّوع الأكثر إسعاداً، أي نعم؛ ومع ذلك، تطلَّب الأمر بعض المراعاة لأكتم فرحتي. بعد حوالي عشر دقائق من عودتي إلى الصَّالون دخلت اللّيدي سوزان الغرفة. استنتجتُ، بالطَّبع، أنَّها وريجينالد كانا يتشاجران. وحدَّقتُ بفضولٍ شديدٍ في وجهها لتأكيد قناعتي. ولكنَّ سيِّدة الخداع بدت لامباليةً تمامًا، وبعد الدَّردشة حول موضوعاتٍ غير مهمَّةٍ لفترةٍ قصيرةٍ، قالت لي، «علمتُ من ويلسون أنَّنا سنفتقد السَّيِّد دي

كورسي - هل صحيحٌ أنَّه سيغادر تشرشِل هذا الصَّباح»؟ أجبتها بالإيجاب. فقالت ضاحكةً: « لم يخبرنا شيئًا عن كلِّ هذا اللَّيلةَ الماضية، أو حتى هذا الصَّباح على الإفطار؛ ولكن ربَّما لم يكن هو نفسه يعرف ذلك. غالبًا ما يكون الشَّباب متسرِّعين في قراراتهم، وليسوا أكثر مفاجأةً لنا في اتِّخاذها من عدم استقرارهم في الثَّبات عليها. لا ينبغي أن أتفاجأ إن غيَّر رأيه في النِّهاية، ولم يذهب». وبعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ غادرت الغرفة. ولكنِّي واثقةٌ يا أمِّي من أنَّه ليس لدينا سببٌ للخوف من تغيير خطَّته الحاليَّة. لقد ذهبت الأمور بعيدًا جدًّا. لا بدَّ أنَّهما قد تشاجرا، وحول فريدريكا أيضًا. يذهلني هدوؤها. يا لفرحتك عند رؤيته مرَّةً أخرى، عند رؤيته ما يزال مستحقًّا لاحترامك وقادرًا على بعث سعادتك! حين أكتب بعد ذلك سأكون قادرةً على إخبارك أنَّ السِّير جيمس قد رحل، واللّيدي سوزان هُزِمَت، وفريديريكا في سلام. لدينا الكثير للقيام به، ولكن علينا القيام به. بي توقٌ شديدٌ إلى معرفة كيف حدث هذا التَّغيير المذهل. أختمُ كما بدأت، بأحرِّ التَّهاني.

ابنتكِ المحبَّة،

ك. فيرنن

(24)

من السَّيِّدة نفسها إلى السَّيِّدة نفسها

تشرشِل

لم أتخيَّل، يا أمِّي الغالية، حين أرسلت رسالتي الأخيرة، أنَّ رعشة الفرح اللَّذيذة التي كانت فيها روحي حينذاك، ستنقضي بسرعةٍ كبيرةٍ وتنتهي إلى حزنٍ مؤسف. لا يمكن أبدًا أن أندم بما يكفي لأنَّني كتبت إليك. ولكن من كان ليتنبَّأ بما حدث؟ أمِّي الغالية، قبل ساعتين فحسب ضاعت كلُّ الآمال التي جعلتني سعيدة. لقد سوِّيَ الشِّقاق بين اللّيدي سوزان وريجينالد، وعدنا جميعًا كما كنَّا من قبل. سوى أمرٍ واحدٍ فحسب. لقد طُرد السِّير جيمس مارتن. ما الذي نتطلَّع إليه الآن؟ لقد خاب أملي بالفعل. كان ريجينالد على أهبة الرَّحيل، وكان حصانه قد أُعِدَّ وجُلب إلى الباب؛ فكيف كان لأحدٍ منَّا ألَّا يشعر بالأمان؟ قبل نصف ساعةٍ كنت في انتظار لحظة رحيله. بعد أن أرسلت رسالتي إليك، ذهبت إلى السَّيِّد فيرنن، وجلست معه في غرفته لنتحدَّث عن الأمر برمَّته، ثمَّ قرَّرت البحث عن فريدريكا التي لم أرها منذ الإفطار. صادفتها على الدَّرج، ورأيتها تبكي. قالت: «امرأة عمِّي العزيزة، إنَّه ذاهبٌ ـ السَّيِّد دي كورسي ذاهبٌ، وهذا كلُّه خطأي. أخشى أن يكون غاضبًا جدًّا منِّي، ولكنِّي في الواقع

لم أكن أدري أنَّ الأمر سينتهي بهذه الصُّورة». فأجبتها: «يا حبيبتي، لا تظنِّي أنَّ من الضَّروريِّ أن تعتذري لي عن هذا الأمر. فأنا أشعر بأنِّي مدينةٌ لأيِّ شخصٍ قام بشيءٍ من شأنه أن يعيد أخي إلى المنزل، لأنَّني»، استأنفتُ، «أعلم أنَّ والدي يرغب كثيرًا في رؤيته، ولكن ما الذي فعلتِه في هذا الشَّأن»؟، واحمرَّت خجلًا وهي تجيب: «لم أكن سعيدةً البتَّة بشأن السِّير جيمس لدرجة أنَّني لم أستطع منع نفسي ـ لقد فعلت شيئًا خاطئًا جدًّا، أعلم؛ ولكن لم تكن لديك فكرةٌ عن البؤس الذي كنت فيه: وقد أمرتني ماما ألَّا أتحدَّث إليك أو إلى عمِّي أبدًا بشأن هذا الموضوع، و ـ» «لذلك تحدَّثتِ إلى أخي ليتدخَّل في الأمر» قلت لها لكي أجنِّبها عناء التَّفسير. «كلَّا، بل راسلته ـ لقد فعلتُ ذلك بالفعل؛ لقد استيقظت هذا الصَّباح قبل طلوع الضَّوء بساعتين؛ وحين كتبت رسالتي، ظننتُني لن أتحلَّى بالشَّجاعة أبدًا لتقديمها. ولكن، بعد الإفطار وفي أثناء ذهابي إلى غرفتي، التقيته في الممرِّ، ولأنِّي أعلم أنَّ كلَّ شيءٍ يعتمد على تلك اللَّحظة، أجبرت نفسي على تقديمها. وكان من الطِّيبة لدرجة أنَّه التقفها منِّي على الفور. لم أجرؤ على النَّظر إليه، وجريتُ مباشرةً. كنت في خوفٍ منعني من أن أتنفَّس. أنت لا تعرفين مدى بؤسي يا امرأة عمِّي العزيزة». «فريدريكا»، قلتُ لها، «كان يجب أن تخبريني بكلِّ مشاكلك. كان يجب أن تجدي فيَّ صديقةً مستعدَّةً دائمًا لمساعدتك. هل تعتقدين أنِّي أو عمَّك ما كنَّا لنتبنَّى قضيَّتك بحرارةٍ مثل أخي»؟. فقالت: «في الواقع، لم يكن لديَّ شكٌّ في لطفك»، ثمَّ قالت وقد احمرَّ وجهها مرَّةً أخرى: «ولكنَّني ظننت السَّيِّد دي كورسي قادرًا على أيِّ شيءٍ مع والدتي؛

ولكن كنتُ مخطئةً: لقد تشاجرا شجارًا مروِّعًا بشأن ذلك، وها هو راحلٌ. ولن تغفر لي ماما، وسأكون أسوأ حالًا ممَّا كنت في أيِّ وقتٍ مضى». أجبتها: «كلَّا، لن تكوني كذلك». «في نقطةٍ كهذه، ما كان يجب أن يمنعك نهيُ والدتك من التحدُّث إليَّ بشأن هذا الموضوع. فأمُّكِ ليس لديها الحقُّ في جعلك غير سعيدةٍ، ولن تفعل ذلك. ومع هذا، لا يمكن أن يكون توجُّهك إلى ريجينالد إلَّا مفيدًا لخير الجميع. أظنُّ أنَّ هذا هو الأفضل. ثقي أنَّك لن تكوني غير سعيدةٍ بعد الآن». في تلك اللَّحظة، دهشت حين رأيت ريجينالد يخرج من غرفة ملابس اللّيدي سوزان. أوجسَ قلبي شيئًا على الفور. كان ارتباكه عند رؤيتي واضحًا جدًّا. واختفت فريدريكا في الحال.

«هل أنت راحلٌ»؟ قلت له؛ «سوف تجد السَّيِّد فيرنن في غرفته الخاصَّة». فأجاب: «كلَّا، يا كاثرين، لن أرحل. هل تسمحين لي بالتَّحدُّث إليك للحظة»؟ ذهبنا إلى غرفتي. وتابع: «لقد وجدتُ»، وارتباكه يزداد في أثناء حديثه، «أنَّني أتصرَّف بحماسي الأحمق المعتاد. لقد أسأت فهم اللّيدي سوزان تمامًا، وكنت على وشك مغادرة المنزل تحت انطباعٍ زائفٍ عن سلوكها، لقد حدث خطأٌ كبيرٌ جدًّا، لقد أخطأنا جميعًا، وكنت أتوهَّم. فريدريكا لا تعرف أمَّها. واللّيدي سوزان لا تقصد شيئًا سوى مصلحتها، ولكنَّها لم تجعل منها صديقةً لها. لذا فاللّيدي سوزان لا تعرف دائمًا ما يجعل ابنتها سعيدة. إلى جانب ذلك، لم يكن لديَّ أيُّ حقٍّ في التَّدخُّل. لقد أخطأت الآنسة فيرنن في

تقديم طلبها لي. باختصارٍ، يا كاثرين، كلُّ شيءٍ حدث خطأ، ولكن الآن تمَّت تسوية كلِّ ذلك وبسعادة. واللّيدي سوزان، كما أظنُّ، ترغب في التَّحدُّث إليك عن ذلك، إن كان لديك وقت فراغ». فأجبته: «بالتَّأكيد»، فتنهَّد بعمقٍ بعد سرد القصَّة الواهية. ولكنَّني لم أدلِ بتعليقاتٍ لأنَّ الكلمات كانت ستذهب هباءً.

كان ريجينالد سعيدًا بالابتعاد، فذهبت إلى اللّيدي سوزان ينتابني الفضولُ فعلًا لسماع روايتها عن ذلك. فقالت بابتسامة: «ألم أخبرك بأنَّ أخاك لن يتركنا في نهاية الأمر»؟ فأجبتها: «لقد أخبرتِني حقًّا». «ولكنِّي منَّيت نفسي بأن تكوني مخطئةً». «ما كان لينبغي لي أن أخاطر بمثل هذا الرَّأي،» ردَّت قائلةً، «لو لم يخطر لي في تلك اللَّحظة أنَّ قراره بالرَّحيل قد يكون ناتجًا عن محادثةٍ انخرطنا فيها هذا الصَّباح وانتهت باستيائه الشَّديد من عدم فهم أحدنا مقاصد الآخر بشكلٍ صحيح. فهذه الفكرة تداهمني في الوقت الحاليِّ، وقرَّرت على الفور أنَّ الخلاف العارض، الذي قد أكون على الأرجح مُلامةً عليه مثله تمامًا، يجب ألَّا يحرمك من أخيك. إن كنت تتذكَّرين، لقد غادرت الغرفة على الفور تقريبًا وقد عقدت العزم على ألَّا أضيِّع أيَّ وقتٍ لمحو هذه الأخطاء بقدر ما أستطيع. كانت هذه هي الحالة ـ لقد ثارت فريدريكا بعنفٍ ضدَّ الزَّواج من السِّير جيمس». «وهل من المعقول أنَّ سموَّك تستغربين ذلك»؟ صحتُ ببعض الدِّفء، «لفريدريكا نباهةٌ متميِّزةٌ، والسِّير جيمس ليس لديه شيء». فقالت: «أنا على الأقلِّ بعيدةٌ جدًّا عن النَّدم يا سِلْفَتي العزيزة». « بل على العكس من ذلك، أنا ممتنَّةٌ جدًّا

لإشادتك بالحسِّ السَّليم لابنتي الغالية. السِّير جيمس بالتَّأكيد دون المستوى (أخلاقه الصِّبيانيَّة تجعله يبدو أسوأ)؛ ولو كانت فريدريكا تملك البصيرة والمؤهِّلات التي كنت أتمنَّاها في ابنتي، أو حتى لو كنت أعلم أنَّها تملك ما تملك، لما كنت متلهِّفةً لهذا الزَّواج». «من الغريب أن تكوني وحدك جاهلةً بابنتك»! «فريدريكا لا تنصف نفسها أبدًا؛ سلوكها خجولٌ وطفوليٌّ، إلى جانب أنَّها تخاف منِّي. خلال حياة والدها المسكين كانت طفلةً مدلَّلةً؛ الحزم الذي كان من الضَّروريِّ أن أظهره منذ ذلك الحين جعل عاطفتها تنفر منِّي؛ كما لم يكن لديها أيُّ لمعة ذكاءٍ، أيُّ لمعة عبقريَّةٍ أو حدَّةِ ذهنٍ تدفع بها إلى الأمام». «قولي بالأحرى إنَّها كانت غير محظوظةٍ في تعليمها»! «السَّماء وحدها تعرف، يا عزيزتي اللّيدي فيرنن، كم أنا مدركةٌ تمامًا لذلك، ولكنَّني أودُّ أن أنسى كلَّ الظُّروف التي قد تلقي باللَّوم على ذكرى شخصٍ مقدَّسٍ عندي». هنا تظاهرت بالبكاء. وقد نفد صبري معها، فقلت لها: «ولكن ما الذي ترغبين سموُّكِ في إبلاغي به عن خلافك مع أخي»؟، «لقد نجم عن تصرُّف ابنتي، والذي يشير بالقدر نفسه إلى فقدانها الصَّواب وخوفها المؤسف منِّي الذي تكلَّمت عنه ـ لقد كتبت إلى السَّيِّد دي كورسي».، «أعلم أنَّها فعلت ذلك؛ فلقد منعتِها من التَّحدُّث إلى السَّيِّد فيرنن أو إليَّ بشأن أسباب محنتها؛ فماذا يمكنها أن تفعل، إذن، سوى أن تطلب مساعدة أخي»؟، «يا إلهي»! صاحت متعجِّبةً: «أيُّ فكرةٍ أخذتِها عنِّي! هل تفترضين أنَّني كنت مدركةً لحزنها! وأنَّ هدفي أن جعل طفلتي بائسةً، وأنَّني منعتها من التَّحدُّث إليك في هذا الموضوع خوفًا من إفسادكِ

المخطَّط الشَّيطاني؟ هل تظنِّينني أعدم كلَّ شعورٍ نبيلٍ وكلَّ حسٍّ فطريٍّ سليم؟ وهل أنا قادرةٌ على أن أوصل إلى البؤس الأبديِّ مَن واجبي الدُّنيويُّ الأوَّل ضمان سعادتها؟ إنَّها لفكرةٌ مروِّعة»!، « وماذا كانت نيَّتك حين أصرَّيت على صمتها»؟، «ما الفائدة، أختي العزيزة، من تدخُّلك أيًّا كانت القضيَّة؟ لماذا يجب أن أخضعك للتَّوسُّلات التي رفضتُ أنا نفسي سماعها؟ لا لك ولا لها، ولا حتى لي، يمكن أن يكون مثل هذا الشَّيء مرغوبًا. حين اتَّخذت قراري، لم أكن أرغب في تدخُّل شخصٍ آخر، مهما كان ودودًا. لقد كنت مخطئةً، هذا صحيح، ولكنَّني ظننت نفسي محقَّة». «ولكن ما هو هذا الخطأ الذي كثيرًا ما تلمِّحين إليه! من أين نشأت فكرتك الخاطئة بشكلٍ مذهلٍ عن مشاعر ابنتك! ألم تكوني تعلمين أنَّها تكره السِّير جيمس»؟، « كنت أعلم أنَّه لم يكن بالتَّأكيد الرَّجلَ الذي كانت لتختاره، ولكنِّي كنت مقتنعةً بأنَّ اعتراضاتها عليه لم تنشأ عن أيِّ تصوُّرٍ لنقصٍ فيه. لا يجب أن تستجوبيني، مع ذلك، يا أختي العزيزة، بدقَّةٍ بالغةٍ عن هذه النُّقطة»، واصلَتْ وهي تمسك يدي بحنان؛ «أنا أعترف بصراحةٍ أنَّ هناك ما أخفيه. فريدريكا تجعلني غير سعيدةٍ للغاية! إنَّ طلبها من السَّيِّد دي كورسي يؤلمني بشكلٍ خاص». فقلت: «وما الذي تقصدينه، بهذا الغموض؟ إن كنت تظنِّين ابنتك تكنُّ المشاعر لريجينالد، فإنَّ اعتراضها على السِّير جيمس لا يمكن أن يكون أقلَّ مدعاةً للاهتمام إذا كان سبب الاعتراض وعيها بحماقته؛ ولماذا يجب على سموِّك، على أيِّ حالٍ، أن تتشاجري مع أخي بسبب تدخُّله؟ ألا تعرفين أنَّه ليس من طبيعته أن يرفض عند استثارته بهذه الطَّريقة»؟، «تعلمين

أنَّ له طبعًا ناريًّا، وقد جاء ليحتجَّ عليَّ ويبدي تعاطفه الكامل مع هذه الفتاة المظلومة، هذه البطلة المنكوبة! لقد أساء أحدنا فهم الآخر: هو صدَّق أنِّي مُلامةٌ أكثر ممَّا كنتُ في الحقيقة؛ وأنا وجدتُ تدخُّله أقلَّ قابليَّةً للتَّبرير ممَّا أجده الآن. إنَّني أكنُّ تقديرًا حقيقيًّا له، وكنتُ مهانةً إلى حدٍّ لا يوصف، كما أعتقد، إذ وجدتُ تقديري له في غير محلِّه. كنَّا محتدَّين، وبالطَّبع مُلامَين على حدٍّ سواء. وقراره بمغادرة تشرشِل ينسجم مع اندفاعه المعتاد، ولكن حين فهمت نيَّته، وبدأت أعتقد في الوقت نفسه أنَّ كلًّا منَّا أساء فهم الآخر، قرَّرت أن أحصل منه على تفسيرٍ قبل فوات الأوان. فتجاه أيِّ فردٍ من أفراد أسرتك، عليَّ أن أشعر دومًا بدرجةٍ من المودَّة، وأنا أعلم أنَّه سيؤلمني بشكلٍ محسوسٍ أن تنتهي معرفتي بالسَّيِّد دي كورسي بصورةٍ محزنةٍ للغاية. عليَّ الآن أن أضيف فحسب أنَّني مقتنعةٌ بأنَّ كره فريدريكا نحو السِّير جيمس مبرَّرٌ، وسأبلغه على الفور بأنَّ عليه فقدان كلِّ أملٍ فيها. إنَّني أتألَّم لأنَّني، مع براءتها، جعلتها غير سعيدةٍ في هذا الصَّدد. وستنال منِّي كلَّ ما أستطيع منحها إيَّاه؛ فإن قدَّرت سعادتها كما أقدِّرها، وإن تصرَّفت بحكمةٍ وضبطت نفسها كما ينبغي، يمكنها من الآن فصاعدًا ألَّا تقلق. اعذريني، يا أختي العزيزة، لأنَّني أخذت من وقتك، ولكنَّه حقٌّ لنفسي عليَّ. وبعد هذا التَّفسير، أثق في أنَّني لست في خطر السُّقوط من عينك». كان يمكن أن أقول: «ليس كثيرًا، في الواقع»! ولكنِّي تركتها في صمتٍ تقريبًا. لقد كانت أطول فترةٍ من الصَّبر أمكنني تحمُّلها. وما كنت لأستطيع إيقاف نفسي لو بدأت. يا لثقتها! يا لمكرها! ولكنَّني لن أسمح لنفسي بالوقوف

عندهما؛ فسيذهلانك بما فيه الكفاية. قلبي يشمئزُّ بداخلي. وحالما تمالكت نفسي عدت إلى البهو. كانت عربة السِّير جيمس عند الباب، وكان مرحًا كالعادة، وغادر بعد ذلك بوقتٍ قصير. يا للسُّهولة التي تجلب أو تصرف بها صاحبة السُّموِّ عشيقها! وعلى الرَّغم من هذا الانعتاق، ما تزال فريدريكا تبدو غير سعيدةٍ: ما تزال خائفةً، ربَّما، من غضب والدتها، أو من رحيل أخي، أو ربَّما كانت غيورةً من بقائه. أرى كيف تراقبه عن كثبٍ هو واللّيدي سوزان، الفتاة المسكينة! ليس لديَّ الآن أيُّ أملٍ لها. ليست هناك فرصةٌ لها في أن يبادلها مشاعرها، فهو يفكِّر فيها بشكلٍ مختلفٍ تمامًا عن ذي قبل؛ قد يقدِّم لها بعض الإنصاف، ولكنَّ مصالحته مع والدتها تحول دون أيِّ أملٍ أكبر. استعدِّي يا أمِّي العزيزة للأسوأ! من المؤكَّد أنَّ احتمال زواجهما مرتفع! إنَّه لها الآن أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. حين يقع هذا الحدث البائس، ستكون فريدريكا في عهدتنا بالكامل. أنا ممتنَّةٌ لأنَّ رسالتي الأخيرة سوف تسبق ذلك بقليل، لأنَّ من المهمِّ جدًّا إعفاءكِ من كلِّ لحظةِ فرحٍ لن تؤدِّي في النِّهاية سوى إلى خيبة أملٍ كبيرة.

ابنتكِ المحبَّة دومًا،

كاثرين فيرنن

(25)

من اللّيدي سوزان إلى السَّيِّدة جونسون

تشرشِل

أكتب إليكِ يا عزيزتي أليسيا لأقدِّم التَّهاني: أنا نفسي جَذِلَةٌ ومنتشيةٌ بالنَّصر! حين كتبت إليك في اليوم السَّابق، كنت في الحقيقة في حالة ضيقٍ شديدٍ، ولأسبابٍ كافية. كلَّا، لا أعرف إن كان عليَّ أن أطمئنَّ تمامًا الآن، لأنَّني واجهت صعوبةً في استعادة السَّلام أكبر بكثيرٍ ممَّا أردتُ الخضوع له ـ وريجينالد هذا متغطرسٌ أيضًا، وغطرسته نابعةٌ من شعورٍ خياليٍّ بالنَّزاهة الفائقة، وهو أمرٌ وقحٌ بشكلٍ غير مألوف! لن أسامحه بسهولةٍ، أؤكِّد لك. كان في الواقع على وشك مغادرة تشرشِل! وكنت على وشك إنهاء رسالتي الأخيرة حين أبلغني ويلسون بذلك. لذا، رأيتُ أنَّ عليَّ القيام بشيءٍ ما؛ لأنَّني لا أقبل أن أترك نفسي تحت رحمة رجلٍ تصطبغ مشاعره بالعنف والانتقام. كان سيحطُّ من سمعتي أن أسمح بمغادرته حاملًا هذا الانطباع المسيء لشخصي. وعلى هذا الأساس، كان التَّنازل ضروريًّا. أرسلت ويلسون ليخبره بأنَّني أرغب في التَّحدُّث إليه قبل أن يرحل. وجاء على الفور. كانت المشاعر الغاضبة التي صبغت كلَّ ملمحٍ من ملامحه حين افترقنا أخيرًا قد خفتت قليلًا. بدا مندهشًا من استدعائي

إيَّاه، وبدا كما لو أنَّه نصف راغبٍ ونصف خائفٍ أن يليِّنه ما قد أقوله. إن كان وجهي يفصحُ عمَّا كنت عازمةً عليه، فلا شكَّ أنَّه كان رصينًا ووقورًا، ولكن مع قدرٍ من الجدِّيَّة من شأنه إقناعه بأنَّني لم أكن سعيدةً تمامًا. قلت: «أرجو المعذرة يا سيِّدي على الحرِّيَّة التي منحتها لنفسي في استدعائك، ولكن لأنَّني علمت للتَّوِّ أنَّك تنوي مغادرة هذا المكان اليوم، شعرت أنَّ من واجبي أن أرجوك ألَّا تقصِّر زيارتك هنا ولو ساعةً واحدةً بسببي. أدركُ تمامًا أنَّه بعد الذي كان بيننا سيكون من غير المناسب لكلينا البقاء لفترةٍ أطول معًا في المنزل نفسه: فهذا التَّبدُّل الهائل والكلِّيُّ في الصَّداقة الحميمة من شأنه أن يجعل من أيِّ تقاربٍ مستقبليٍّ عقوبةً أليمةً؛ ولا شكَّ في أنَّ قرار تركك تشرشِل ينسجم مع هذا الوضع، ومع تلك المشاعر القويَّة التي أعرف أنَّك تمتلكها. ولكن، في الوقت نفسه، ليس بوسعي أن أقبل هذه التَّضحية بأن تغادر أقرباء أعزَّاء جدًّا على قلبك كما أنت عزيزٌ جدًّا على قلوبهم. بقائي هنا لا يمكن أن يمنح السَّيِّد واللّيدي فيرنن السَّعادة التي يمنحها حضورك؛ ربَّما كانت زيارتي قد طالت جدًّا بالفعل. ولذلك، فإنَّ رحيلي الذي من المفترض أن يكون، على أيِّ حالٍ، قريبًا جدًّا، يمكنني تعجيله بكلِّ بساطةٍ، فرجائي الشَّخصيُّ هو ألَّا أكون بأيِّ حالٍ من الأحوال سببًا في تفريق عائلةٍ تربطها أواصر المودَّة. أمَّا أين أذهب فهذا ما لا يجب أن يشغل بال أحد. وهو لا يهمُّني أنا أيضًا. ولكنَّ أمرك يهمُّ جميع معارفك». وهنا اختتمت حديثي، وآمل أن تكوني راضيةً عن كلامي. فتأثيره على ريجينالد يبرِّر جزءًا من هذا الزَّهو، وإن كان لحظيًّا. أوه، كم كان مبهجًا

رؤية التَّغيُّرات في ملامحه بينما كنت أتحدَّث! رؤية الصِّراع بين استعادة الرِّقَّة وبقاء الاستياء! هناك شيءٌ محبَّبٌ في تلك المشاعر التي يمكن التَّلاعب بها بسهولة؛ أنا لا أحسده على امتلاكها، ولن أتمنَّى، ولو مقابل الدُّنيا وما فيها، أن أمتلك أنا نفسي شيئًا منها؛ ولكنَّها مريحةٌ تمامًا حين يرغب المرء في التَّحكُّم في عواطف الطَّرف الآخر. ومع ذلك، فريجينالد هذا، الذي لان قلبه من كلماتي القليلة إلى أقصى قدرٍ من الإذعان، وصار أكثر انصياعًا، وأكثر ارتباطًا، وأشدَّ إخلاصًا من ذي قبل، كان سيهجرني في أوَّل ثورةٍ غاضبةٍ من قلبه المغرور دون أن يتفضَّل بالبحث عن تفسير. مهانًا كما هو الآن، لا يمكنني أن أغفر له مثل هذه الغطرسة، وأشكُّ إن كان يجب ألَّا أعاقبه بطرده حالًا بعد هذه المصالحة، أو بالزَّواج وإغاظته إلى الأبد. ولكنَّ كلَّ هذه التَّدابير عنيفٌ للغاية بحيث لا يمكن تبنِّيه دون بعض المداولات؛ تتقلَّب أفكاري في الوقت الحاضر بين خططٍ مختلفة. لديَّ الكثير من الأمور المستعجلة: فيجب أن أعاقب فريدريكا، وبشدَّةٍ، على لجوئها إلى ريجينالد؛ كما يجب أن أعاقبه على تلقِّيه ذلك بتأييدٍ ومُحاباةٍ، وعلى بقيَّة سلوكه. كما يجب أن أوجع سِلْفَتي على ملامح الانتصار المتعجرف في مظهرها وأسلوبها منذ طرد السِّير جيمس؛ لأنَّه في تسوية المشكلة مع ريجينالد، لم أستطع إنقاذ هذا الشَّابِّ المسكين؛ ولا بدَّ لي أن أعوِّض نفسي عن الإذلال الذي تعرَّضت له خلال هذه الأيَّام القليلة. لتنفيذ كلِّ هذا لديَّ خططٌ مختلفة. أفكِّر أيضًا في المجيء قريبًا إلى المدينة. ومهما كان قراري بشأن البقيَّة، ربَّما سأضع هذا المشروع قيد التَّنفيذ؛ لأنَّ لندن ستكون دائمًا مجال العمل الأكثر ملاءمةً أيًّا

كان الاتِّجاه الذي أريد التَّحرُّك فيه؛ وفي كلِّ الأحوال سأحظى بمغنم رفقتك وبالقليل من التَّهتُّك بعد كفَّارة الأسابيع العشرة في تشرشِل.

أعتقد أنِّي مدينةٌ لسمعتي بإنجاز الزَّواج بين ابنتي والسِّير جيمس بعد أن خطَّطت لذلك طويلًا. اسمحي لي أن أعرف رأيك في هذه النُّقطة. إنَّ مرونة العقل صفةٌ تتأثَّر بسهولةٍ بالآخرين، وهي صفةٌ تعرفين أنَّني لست راغبةً كثيرًا في الحصول عليها؛ كما ليس لفريدريكا أيُّ حقٍّ في الانغماس في أفكارها على حساب ميول والدتها. وحبُّها التَّافه لريجينالد أيضًا! من واجبي بالتَّأكيد منع مثل هذا الهراء الرُّومانسي. لذلك، وبوضع كلِّ شيءٍ في الاعتبار، يبدو لي أنَّ من واجبي أن آخذها إلى المدينة وأن أزوِّجها على الفور للسِّير جيمس. حين يتمُّ تنفيذ إرادتي وليس إرادته، سيكون لي بعض الحظوة في أن أكون على علاقةٍ جيِّدةٍ بريجينالد، وهو ما لست عليه في الوقت الحاضر؛ لأنَّه على الرَّغم من بقائه تحت سيطرتي، كنتُ أنا من تخلَّى عن الموضوع الذي تشاجرنا بسببه، وشرف النَّصر مشكوكٌ فيه في أحسن الأحوال. أرسلي لي رأيك في كلِّ هذه الأمور، عزيزتي أليسيا، واسمحي لي أن أعرف إن كان يمكنك الحصول على مسكنٍ يناسبني على بعد مسافةٍ قصيرةٍ من مسكنك.

الأكثر محبَّةً لكِ،

س. فيرنن

(26)

من السَّيِّدة جونسون إلى اللّيدي سوزان

شارع إدوارد

أنا سعيدةٌ لأنَّكِ استشرتِني، وهذه نصيحتي: أن تأتي إلى المدينة، دون إضاعة الوقت، وتتركي فريدريكا هناك. سيكون أكثر فائدةً أن تستقرِّي جيِّدًا بالزَّواج من السَّيِّد دي كورسي بدلاً من إزعاجه وبقيَّة أفراد عائلته بتزويج ابنتك للسِّير جيمس. يجب أن تفكِّري في نفسك أكثر من تفكيرك في ابنتك. إنَّها ليست على استعدادٍ لأن تنسب إليكِ الفضل في هذا العالم، وتبدو بالضَّبط في مكانها الصَّحيح في تشرشِل، مع عائلة فيرنن. أمَّا أنتِ فمؤهَّلةٌ للمجتمع، ومن المخزي إقصاؤك عنه. لذا، اتركي فريدريكا تعاقب نفسها على البلاء الذي سبَّبته لك، وليكن عقابها أن تنغمس في هذه الرِّقَّة الرُّومانسيَّة التي ستضمن لها دائمًا ما يكفي من البؤس، وتعالي إلى لندن في أقرب وقتٍ ممكن. لديَّ سببٌ آخر لحثِّك على ذلك: لقد جاء مينوارنغ إلى المدينة الأسبوع الماضي، وقد توصَّل، على الرَّغم من السَّيِّد جونسون، إلى نيل فرصة رؤيتي. إنَّه بائسٌ تمامًا بسببك، وغيورٌ إلى حدٍّ ما من دي كورسي حتى إنَّه من غير المستصوَب أبدًا أن يلتقيا في الوقت الحاضر. ومع ذلك، إن لم تسمحي له برؤيتك هنا، فلا يمكنني أن أضمن لكِ عدم ارتكابه حماقةً كبيرةً ـ كالذَّهاب إلى تشرشِل، على سبيل المثال، وهو أمرٌ مروِّع! وإضافةً إلى ذلك، إن أخذت بنصيحتي، وقرَّرت الزَّواج من دي كورسي،

فسيكون من الضَّروريِّ لك أن تُزيحي مينوارنغ عن طريقك. وليس أمامك سوى التَّأثير بما يكفي لإعادته إلى زوجته. لديَّ دافعٌ آخر لحضورك: فالسَّيِّد جونسون سيغادر لندن الثُّلاثاء المقبل. سيذهب من أجل حالته الصِّحِّيَّة إلى باث، حيث، إن كانت الظُّروف مواتيةً لبنيته الجسميَّة ولرغباتي، سيبقى طريح الفراش مع النُّقرس لعدَّة أسابيع. خلال غيابه سنكون قادرتَين على اختيار رفقتنا والتَّمتُّع الحقيقي. كنت سأدعوكِ إلى شارع إدوارد، ولكنَّه انتزع منِّي نوعًا من الوعد بعدم دعوتك إلى منزلي. ما كان لشيءٍ سوى احتياجي الشَّديد إلى المال أن يرغمني على ذلك. ومع ذلك، يمكنني أن أجد لك شقَّةً جميلةً في شارع سيمور الأعلى، وقد نكون دائمًا معًا هناك أو هنا؛ لأنَّني أعدُّ وعدي للسَّيِّد جونسون مقتصرًا (على الأقلِّ في غيابه) على أنَّك لن تنامي في المنزل. يحكي لي مينوارنغ المسكين قصصًا عن غيرة زوجته. يا لها من امرأةٍ سخيفةٍ لتتوقَّع الإخلاص من رجلٍ ساحرٍ للغاية! ولكنَّها كانت سخيفةً على الدَّوام ـ وبصورةٍ غير محتملةٍ، بزواجها منه. إنَّها وريثة ثروةٍ كبيرةٍ وهو لا يملك شلنًا واحدًا: كان عليها نيل لقبٍ آخر ربَّما إلى جانب البارونة. كانت حماقتها في الارتباط بهذه الطَّريقة كبيرةً جدًّا لدرجة أنَّني لن أستطيع، مع أنَّ السَّيِّد جونسون كان وليَّها، وأنا لا أشاركه آراءه بشكلٍ عامٍّ، أن أغفر لها أبدًا.

وداعاً. لكِ إلى الأبد،

أليسيا

(27)

من السَّيِّدة فيرنن إلى اللّيدي دي كورسي

تشرشِل

هذه الرِّسالة، يا أمِّي العزيزة، سيحملها لك ريجينالد. زيارته الطَّويلة على وشك الانتهاء أخيرًا، ولكن أخشى أنَّ الانفصال حدث متأخِّرًا جدًّا ولن ينفعنا. ستذهب إلى لندن لرؤية صديقتها المعروفة، اللّيدي جونسون. كانت نيَّتها في البداية أن ترافقها فريدريكا، لتأخذ بعض الدُّروس، ولكنَّنا أبقيناها. كانت فريدريكا تشعر بالبؤس والضِّيق من فكرة الذَّهاب، ولم أتحمَّل أن تكون تحت رحمة والدتها. لا يمكن لجميع الأساتذة في لندن أن يعوِّضوها عن ضياع راحتها. كان عليَّ أن أخشى أيضًا على صحَّتها وعلى كلِّ شيءٍ ما عدا مبادئها التي أعتقد أنَّها لن تتأذَّى من أمِّها أو أصدقاء أمِّها. ولكن مع مثل هؤلاء الأصدقاء، الذين لا بدَّ أنَّها ستخالطهم (مجموعةٌ سيِّئةٌ للغاية، لا أشكُّ في ذلك)، أو ستُترَك في عزلةٍ تامَّةٍ، لا يمكنني أن أعرف أيُّهما سيكون الأسوأ لها. إن ظلَّت مع والدتها، فبئس الحال! وإن ظلَّت مع ريجينالد، وهذا هو الأرجح، فذلك أسوأ لنا. ببقائها هنا سنكون في سلامٍ في الوقت الحاضر، وأظنُّ أنَّ واجباتنا المنزليَّة المنتظمة وكتبنا ومحادثاتنا، مع ممارسة التَّريُّض، ووجود الأطفال، وكلِّ متعةٍ منزليَّةٍ في

مقدوري توفيرها، ستتغلَّب تدريجيًّا على هذا التَّعلُّق الصِّبيانيِّ. ما كانت لتخالجني الشُّكوك لو أنَّ أذيَّتها جاءت من أيِّ امرأةٍ أخرى في العالم غير والدتها. إلى متى ستبقى اللّيدي سوزان في المدينة، وهل ستعود إلى هنا مرَّةً أخرى، هذا ما لا أعرفه. لم أستطع أن أكون ودودةً في دعوتي إيَّاها، ولكن إن اختارت المجيء، فلن يُبقيها بعيدةً أيُّ غيابٍ للمودَّة من جانبي. لم أستطع ردَّ نفسي عن سؤال ريجينالد إن كان ينوي قضاء هذا الشِّتاء في لندن، بمجرَّد أن عرفتُ أنَّ خطوات سموِّها سوف تتَّجه إلى هناك. ومع أنَّه أعلن أنَّه لم يقرِّر تمامًا، إلَّا أنَّه كان هناك شيءٌ في مظهره وصوته، وهو يتحدَّث، يتعارض مع كلماته. لقد انتهيت من الشَّكوى. أرى أنَّ هذا الحدث قد انتهى الآن إلى اليأس والاستسلام. إن تركتكما قريبًا وذهب إلى لندن، يمكننا اعتبار كلِّ شيءٍ منتهيًا.

ابنتُكِ المحِبَّة،

ك. فيرنن

Telegram @t_pdf

(28)

من السَّيِّدة جونسون إلى اللّيدي سوزان

شارع إدوارد

صديقتي العزيزة، ـ أكتب إليكِ وأنا في أشدِّ محنةٍ. لقد وقع حدثٌ مؤسفٌ للغاية. لقد وجد السَّيِّد جونسون الطَّريقة الأكثر فعاليَّةً ليعصف بنا جميعًا. لقد سمع، كما أتصوَّر، بطريقةٍ أو بأخرى، أنَّك ستكونين في لندن قريبًا، وادَّعى على الفور معاناته من هجمةٍ من هجمات النُّقرس كفيلةٍ على الأقلِّ بتأجيل رحلته إلى باث، إن لم يكن بتعطيلها تمامًا. أنا مقتنعةٌ بأنَّ ألم النُّقرس يجيئه ويتركه حسب رغبته؛ لقد حدث الشَّيء نفسه حين أردت الانضمام إلى آل هاملتون في البحيرات. وقبل ثلاث سنوات، حين عرضت لي نزوةُ الذَّهاب إلى باث، فليس هناك ما يجعله يعاني أيَّ عَرَضٍ من أعراض النُّقرس.

يسعدني أن أجد أنَّ رسالتي كانت ذات تأثيرٍ كبيرٍ عليكِ، وأنَّ دي كورسي هو لك بالتَّأكيد. أخبريني بمجرَّد وصولك، وعلى وجه الخصوص أخبريني ماذا تنوين أن تفعلي مع مينوارنغ. من المستحيل أن أقول لك متى سأكون قادرةً على المجيء إليك؛ فانشغالي سيكون كبيرًا. إنَّها حيلةٌ بغيضةٌ أن يمرض هنا بدلًا من أن

يمرض في باث، بغيضةٌ لدرجة أنَّني بشقِّ الأنفس أستطيع أن أتقبَّل الأمر. كانت عمَّاته العجوزات سيرعينه في باث، ولكن هنا يقع كلُّ شيءٍ على عاتقي. وهو يتحمَّل الألم بصبرٍ لدرجة أنَّني لا أملك العذر الكافي لأفقد أعصابي.

صديقتكِ إلى الأبد،

أليسيا

(29)

من اللّيدي سوزان فيرنن إلى السَّيِّدة جونسون

شارع سيمور الأعلى

عزيزتي أليسيا، ـ لم يكن هناك حاجةٌ إلى هجمة النُّقرس الأخيرة لجعلي أكره السَّيِّد جونسون، والآن لا يمكنك تقدير مدى كرهي له. أن تُحتَجَزي كممرِّضةٍ في شقَّته! عزيزتي أليسيا، يا للخطأ الذي ارتكبتِه بالزَّواج برجلٍ في عمره! رجلٍ عجوزٍ بما يكفي ليدقِّق في كلِّ التَّفاصيل، عنيدٍ، ومصابٍ بالنُّقرس! رجلٍ أكبر سنًّا من أن يكون محبوبًا، وأصغر سنًّا من أن يموت. وصلت اللَّيلة الماضية حوالي الخامسة، وما كدت أبلع العشاء حتى ظهر مينوارنغ. لن أخفي السَّعادة الحقيقيَّة التي منحتني إيَّاها رؤيته، ولا مدى شعوري القويِّ بالتَّناقض الكبير بين شخصيَّته وأخلاقه من جهةٍ وشخصيَّة ريجينالد وأخلاقه من جهةٍ أخرى، بما ليس في مصلحة هذا الأخير على الإطلاق. لساعةٍ أو ساعتين، تزعزع قراري بالزَّواج به، ومع أنَّها كانت فكرةً بليدةً للغاية وغير منطقيَّةٍ لتبقى طويلًا في ذهني، إلَّا أنَّني لا أشعر بتوقٍ كبيرٍ إلى إتمام زواجي، ولا أتطلَّع بنفاد صبرٍ إلى اللَّحظة التي سيأتي فيها ريجينالد، وفقًا لاتِّفاقنا، إلى المدينة. قد أؤجِّل وصوله تحت ذريعةٍ أو أخرى. لا يجب أن يأتي قبل ذهاب مينوارنغ. ما تزال الشُّكوك تساورني في بعض الأحيان

في أمر الزَّواج. إن مات الرَّجل العجوز قد لا أتردَّد، ولكنَّ الاعتماد على أهواء السِّير ريجينالد لا يناسب استقلاليَّتي؛ وإن عقدتُ العزم على انتظار هذا الحدث، فسأجد ما يكفي من العذر في الوقت الحاضر لأنِّي لم أصبح أرملةً إلَّا منذ عشرة أشهر. لم أعط مينوارنغ أيَّ تلميحٍ عن نيَّتي، ولم أسمح له باعتبار علاقتي بريجينالد أكثر من مجرَّد مغازلةٍ عاديَّةٍ، وهو مطمئنٌّ إلى حدٍّ ما. وداعًا، إلى أن نلتقي. أنا مأخوذةٌ بمسكني.

المخلصةُ لكِ دومًا،

س. فيرنن

(30)

من اللّيدي سوزان فيرنن إلى السَّيِّد دي كورسي

شارع سيمور الأعلى

لقد تلقَّيت رسالتك، ومع أنَّني لا أحاول إخفاء سروري من تحرُّقك لساعة اللِّقاء، أشعر بأنَّني مضطرَّةٌ إلى تأخير تلك السَّاعة إلى ما بعد الوقت المحدَّد أصلًا. لا تظنَّني قاسيةً بسبب هذه الممارسة لسلطتي، ولا تتَّهمني بالمزاجيَّة دون سماع أسبابي أوَّلًا. في أثناء رحلتي من تشرشِل، كان لديَّ الوقت الكافي للتَّأمُّل في الوضع الحالي لعلاقتنا، وقد أفادت كلُّ إعادة نظرٍ في إقناعي بأنَّ هذه العلاقة تتطلَّب دقَّةً وحذرًا في السُّلوك لم نكن منتبهَين إليهما قبل الآن. لقد كنَّا متسرِّعَين في مشاعرنا لدرجة التَّهوُّر الذي لم يتوافق مع حقوق أصدقائنا أو مع رأي النَّاس. لقد كنَّا غير حذرَين في عقد هذه العلاقة الطَّائشة، ولكن يجب ألَّا نكمل هذا الطَّيش بالتَّصديق عليها بينما هناك الكثير من الأسباب للخوف من أنَّ هذه العلاقة ستثير معارضة الأصدقاء الذين تعوِّل عليهم. ليس من حقِّنا لومُ والدك إن كان يتوقَّع لك زواجًا مفيدًا. فعندما تكون التِّركة سابغةً كما هو شأن ثروة عائلتك، فإنَّ الرَّغبة في زيادتها، وإن لم تكن منطقيَّةً تمامًا، فإنَّها شائعةٌ جدًّا بحيث لا تثير المفاجأة أو الاستياء. إنَّ له الحقُّ في المطالبة بأن تكون زوجة ابنه

امرأةً ثريَّةً، وأحيانًا أشعر بالذَّنب لزجِّكَ في علاقةٍ غير حكيمة؛ ولكنَّ الاعتراف بسلطة العقل غالبًا ما يأتي متأخِّرًا جدًّا عند أولئك الذين يشعرون مثلما أشعر. أنا الآن أرملةٌ منذ بضعة أشهر، ومع أنَّ امتناني ليس كبيرًا لذكرى زوجي على أيِّ سعادةٍ أحسست بها معه خلال سنوات ارتباطنا، لا يمكنني أن أُغفِلَ أنَّ عدم لياقة الزَّواج الثَّاني المبكر قد يعرِّضني لإدانة النَّاس ويجلب عليَّ ما لا أطيق من سخط السَّيِّد فيرنن. يمكنني ربَّما مع الوقت أن أقوِّي نفسي ضدَّ إجحاف الاستنكار العامِّ، ولكنَّ فقداني احترامه القيِّم، وكما تعلم جيِّدًا، أمرٌ لا طاقة لي على احتماله؛ وإذا أُضيف إلى ذلك الخوفُ من إيذاء علاقتك بعائلتك، فكيف لي حينئذٍ أن أعزِّي نفسي؟ وبمشاعر قويَّة للغاية مثل مشاعري، فإنَّ تجريمي بفصل الابن عن والديه سيجعلني، حتى وأنا معك، أكثر الكائنات بؤسًا. لذلك، من المؤكَّد أنَّ من المستحسن تأجيل ارتباطنا ـ إرجاءه إلى أن تبدو الظُّروف مواتيةً ـ وتتَّخذ الأمور منعطفًا أكثر ملاءمة. ولمساعدتنا في اتِّخاذ مثل هذا القرار أشعر أنَّ الفراق سيكون ضروريًّا. علينا ألَّا نلتقي. بقدر ما تبدو قاسيةً هذه الجملة، فإنَّ ضرورة النُّطق بها، والتي وحدها تنسجم معي، ستبدو لك صائبةً حين تفكِّر في وضعنا في ضوء ما وجدت نفسي مضطرَّةً ومرغمةً على طرحه. قد تكون ـ ولا بدَّ أن تكون ـ واثقًا تمامًا من أنَّ الاقتناع الشَّديد بالواجب هو وحده ما يدفعني إلى جرح مشاعري الخاصَّة بِخَثِّكَ على انفصالٍ مطوَّلٍ، ولا تشكَّ مطلقًا في عدم إحساسي بشعورك. لذلك، مرَّةً أخرى، أقول إنَّنا يجب ألَّا نلتقي، ولا ينبغي لنا أن نلتقي. فبالابتعاد بضعة أشهرٍ أحدنا عن الآخر، ستهدأ المخاوف الأخويَّة

للّيدي فيرنن التي، لاعتيادها لذَّة الثَّراء، تعدُّ الثَّروة ضروريَّةً في كلِّ مكان، وهي التي ليست أحاسيسها ذات طبيعةٍ تسمح لها بفهم أحاسيسنا. دعني أسمع منك قريبًا ـ قريبًا جدًّا. قل لي إنَّك تقرُّ بحججي ولا تنكر عليَّ الإدلاء بها. لا أستطيع تحمُّل اللَّوم: معنويَّاتي ليست عاليةً لدرجةٍ تحتمل التَّأنيب القاسي. لا بدَّ لي من السَّعي وراء كلِّ ما يسلِّي، ولحسن الحظِّ يوجد العديد من أصدقائي في المدينة. من بينهم آل مينوارنغ؛ أنت تعرف كم أقدِّر الزَّوج والزَّوجة على حدٍّ سواء.

المخلصة لك،

س. فيرنن

(31)

من اللّيدي سوزان إلى السَّيِّدة جونسون

شارع سيمور الأعلى

صديقتي العزيزة، ـ ذلك المخلوق المعذَّب، ريجينالد، موجودٌ هنا. فرسالتي، التي كانت تهدف إلى إبقائه فترةً أطول في الرِّيف، عجَّلَتْ به إلى المدينة. ولكن بقدر ما تمنَّيت بُعدَه، لا أستطيع أن أخفي سروري بهذا الدَّليل على التَّعلُّق. إنَّه مخلصٌ لي، قلبًا وروحًا. سيقول لك ذلك بنفسه، كتمهيدٍ للتَّعرُّف بكِ، أنت التي يتوق إلى معرفتك. اسمحي له بقضاء المساء معك لتفادي خطر عودته إلى هنا. لقد أخبرته أنَّني لست بخيرٍ وأحتاج إلى بعض الوحدة؛ وإن زارني ثانيةً قد يضعني في موقفٍ حرجٍ، لأنَّ من المستحيل أن تتقي بالخدم. لهذا، ألتمس منك أن تبقيه في شارع إدوارد. لن تجديه رفيقًا ثقيلًا، وأسمح لك بالتَّودُّد إليه بقدر ما تريدين. وفي الوقت نفسه، لا تنسي رغبتي الحقيقيَّة؛ قولي كلَّ ما في وسعك لإقناعه بأنَّني سأكون بائسةً تمامًا إن بقي هنا؛ أنت تعرفين أسبابي ـ أصولُ اللِّياقة، وما إلى ذلك. أودُّ أن أحثَّه أكثر بنفسي، ولكنَّني لا أطيق صبرًا للتَّخلُّص منه، لأنَّ مينوارنغ قادمٌ في غضون نصف ساعة. وداعاً!

س. فيرنن

(32)

من السَّيِّدة جونسون إلى اللّيدي سوزان

شارع إدوارد

عزيزتي، ـ أنا في عذابٍ، ولا أعرف ماذا أفعل. لقد وصل السَّيِّد دي كورسي حين لم يكن مجيئه متوقَّعًا. وفي تلك اللَّحظة دخلت اللّيدي مينوارنغ إلى المنزل، وأصرَّت على رؤية وليِّ أمرها، مع أنَّني لم أكن أعرف شيئًا حتى ذلك الحين، لأنَّني كنت في الخارج عندما جاءت هي وريجينالد، وإلَّا لكنت أرسلته بعيدًا مهما حدث؛ ولكنَّها كانت صامتةً مع السَّيِّد جونسون الذي كان ينتظرني في غرفة المعيشة. لقد وصلت أمس بحثًا عن زوجها، وربَّما عرفتِ ذلك منها بالفعل. لقد أتت إلى هذا المنزل لتطلب تدخُّل زوجي، وقبل أن أدرك ذلك، صار يعرف كلَّ شيءٍ قد ترغبين في إخفائه، فلسوء الحظِّ كانت قد علمت من خادمة مينوارنغ أنَّه كان يزورك يوميًّا منذ قدومك إلى المدينة، وقد شاهدته للتَّوِّ على بابك بأمِّ عينها! ماذا يمكنني أن أفعل! الحقائق مؤلمة! وكلُّها صارت معروفةً لِدِيْ كورسي الذي هو الآن وحده مع السَّيِّد جونسون. لا تتَّهميني. في الواقع، كان من المستحيل أن أمنع ذلك. منذ بعض الوقت والسَّيِّد جونسون يشتبه في أنَّ دي كورسي ينوي الزَّواج بك، وسيتحدَّث معه على انفرادٍ بمجرَّد أن يعلم

بوجوده في المنزل. تلك اللّيدي البغيضة مينوارنغ التي، إن كان هذا يعزِّيكِ، أصبحت أنحل وأقبح من أيِّ وقتٍ مضى، ما تزال هنا، وقد جلسوا هم الثَّلاثة معًا ليتحدَّثوا. ماذا يمكن أن نفعل؟ على أيِّ حالٍ، آمل أن يعذِّب زوجته كما لم يفعل من قبل. مع أمنياتي الحارَّة،

المخلصة لك،

أليسيا

(33)

من اللّيدي سوزان إلى السَّيِّدة جونسون

شارع سيمور الأعلى

هذا التَّطوُّر المفاجئ مُغيظٌ إلى حدٍّ ما. كم هو مؤسفٌ ألَّا تكوني في المنزل! ظننت أنَّ بإمكاني الاعتماد عليكِ في السَّابعة! أنا غير خائفةٍ، فلا تعذِّبي نفسك بالخوف عليَّ؛ فاعتمادًا على ذلك، يمكنني ابتكار قصَّةٍ جيِّدةٍ لريجينالد. لقد ذهب مينوارنغ لتوِّه. وقد حمل إليَّ خبر وصول زوجته. امرأةٌ سخيفةٌ، ماذا تتوقَّع من مثل هذه المناورات؟ ومع ذلك، تمنَّيت لو أنَّها بقيت مطمئنَّةً في لانغفورد. سيكون ريجينالد غاضبًا قليلًا في البداية، ولكن بحلول عشاء الغد، سيكون كلُّ شيءٍ على ما يرام مرَّةً أخرى.

وداعاً!

س. ف.

(34)

من السَّيِّد دي كورسي إلى اللّيدي سوزان

الفندق

أكتب لتوديعك فحسب. لقد زال السِّحر؛ وبتُّ أراكِ كما أنت. بعد أن افترقنا أمس، سمعتُ من مصدرٍ موثوقٍ قصَّةً عنكِ تُضاف إلى إدراكي المهين أنَّني كنتُ ضحيَّة خديعةٍ، وأنَّ الانفصال الفوريَّ والأبديَّ عنك بات ضرورةً مُطلَقة. لا يمكن أن يلتبس عليكِ ما ألمِح إليه. لانغفورد! لانغفورد! هذه الكلمة ستكون كافية. تلقَّيت المعلومات في منزل السَّيِّد جونسون من اللّيدي مينوارنغ نفسها. أنت تعرفين كم أحببتك. ويمكنك الحكم بدقَّةٍ على مشاعري الحاليَّة، ولكنَّني لست ضعيفًا بما يكفي للانغماس في وصف تلك المشاعر لامرأةٍ تفتخرُ بتعذيبها، بينما لم تتمكَّن أبدًا من كسب ودِّها.

ر. دي كورسي

(35)

من اللّيدي سوزان إلى السَّيِّد دي كورسي

شارع سيمور الأعلى

لن أحاول وصف دهشتي عند قراءة الرِّسالة التي تلقَّيتها للتَّوِّ منك. إنَّني مشوَّشةٌ في مساعيَّ لتكوين بعض التَّخمينات المنطقيَّة عمَّا يمكن أن تكون اللّيدي مينوارنغ قد أخبرتك به وسبَّب مثل هذا التَّحوُّل في مشاعرك. ألم أشرح لك كلَّ شيءٍ فيما يتعلَّق بي ويمكن أن يثير الشُّكوك عنِّي، والذي تفسِّره الطَّبيعة السَّيِّئة للنَّاس القاصدين تشويه سمعتي؟ ماذا يمكن أن تكون قد سمعت الآن ليتراجع تقديرك لي؟ هل سبق لي أن أخفيت عنك شيئًا؟ إنَّك تربكني أكثر ممَّا أستطيع أن أعبِّر عنه يا ريجينالد، ولا يمكنني أن أفترض أنَّ القصَّة القديمة عن غيرة اللّيدي مينوارنغ قد عادت إلى السَّطح مجدَّدًا، أو على الأقلِّ أنَّ من الممكن أن تُعَارَ آذانًا صاغيةً مرَّةً أخرى. تعال إليَّ على الفور، واشرح لي ما هو الآن غير مفهومٍ على الإطلاق. صدِّقني أنَّ كلمة لانغفورد وحدها ليست بقوَّة الإيحاء التي تُغني عن ضرورة الإضافة. إن كنَّا سنفترق، فسيكون من اللَّطيف على الأقلِّ أن تأخذ منِّي إذن إجازتك شخصيًّا ـ ولكن لا رغبة لي في المزاح. في الحقيقة، أنا

جادَّةٌ تمامًا؛ لأنَّ سقوطي هكذا، ولو لساعةٍ، من عينكَ خزيٌ لا أعرف كيف أتحمَّله. سأحصي الدَّقائق، دقيقةً دقيقةً، حتى وصولك.

س. ف.

(36)

من السَّيِّد دي كورسي إلى اللّيدي سوزان

الفندق

لماذا تكتبين إليَّ؟ لماذا تطلبين التَّفاصيل؟ ولكن، ما دام الأمر كذلك، فإنَّني مضطرٌّ إلى التَّصريح بأنَّ جميع ما قيل عن سوءِ سلوكك في حياة السَّيِّد فيرنن وبعد موته، والذي بلغ سَمْعَي مثلما بلغَ سَمْعَ النَّاس عمومًا، وصدَّقتُه تمامًا قبل أن أعرفك، ولكن أنتِ، بجهود مؤهِّلاتك المنحرفة جعلتِني مُصِرًّا على إنكاره، قد ثبت لي بشكلٍ لا لبس فيه؛ والأكثر، أنا متأكِّدٌ من أنَّ علاقةً، لم أكن قد فكَّرت فيها من قبل، كانت موجودةً لبعض الوقت، وما تزال موجودةً، بينك وبين الرَّجل الذي سرقتِ سلام عائلته مقابل حسن الضِّيافة التي استقبلتك بها؛ وأنَّك قد تواصلت معه منذ مغادرتك لانغفورد؛ ليس مع زوجته، بل معه؛ وأنَّه يزورك الآن كلَّ يوم. هل تجرؤين على إنكار ذلك؟ وكنتُ طوال هذا الوقت عاشقًا مُشجَّعًا ومرحَّبًا به! ممَّ لم أُفلِتْ؟! عليَّ أن أكون ممتنًّا فحسب. بعيدةٌ عنِّي كلُّ شكوى، كلُّ آهةِ أسف. إنَّها حماقتي ما عرَّضني للخطر، ونجاتي إنَّما أدين بها لطيبة واستقامة شخصٍ آخر؛ ولكنَّ اللّيدي مينوارنغ المسكينة، التي يبدو أنَّ معاناتها حين تتحدَّث عن الماضي تهدِّد صوابها، ما الذي يمكن أن

يعزِّيها! بعد اكتشاف شيءٍ كهذا، يكاد يكون من المستحيل ادِّعاءُ المزيد من التَّساؤل عمَّا قصدتُه بتوديعك. لقد استعدت بصيرتي كاملةً، وهي تأمرني ليس بازدراء المكائد التي أذلَّتني فحسب، بل وباحتقار نفسي للضَّعف الذي بَنَتْ عليه تلك المكائد قوَّتها.

ر. دي كورسي

(37)

من اللّيدي سوزان إلى السَّيِّد دي كورسي

شارع سيمور الأعلى

أنا راضيةٌ، ولن أزعجك أكثر بعد انتهاء هذه الأسطر القليلة. الخطوبة التي كنتَ حريصًا على عقدها قبل أسبوعين لم تعد منسجمةً مع آرائك، وأنا سعيدةٌ بأن أجد أنَّ النَّصيحة الحكيمة التي أسداها لك والداك لم تذهب سدى. وإنَّ استعادتك السَّلام، بلا شكٍّ، ستتبع بسرعةٍ هذا البرَّ للوالدين، وأنا أمنِّي النَّفس بأملِ أن أتغلَّب على نصيبي من خيبة الأمل هذه.

س. ف.

(38)

من السَّيِّدة جونسون إلى اللّيدي سوزان فيرنن

شارع إدوارد

إنَّني حزينةٌ، مع أنَّني لست مندهشةً من قطيعتك مع السَّيِّد دي كورسي. فلقد أبلغَ السَّيِّدَ جونسون للتَّوِّ بذلك برسالةٍ بعثها إليه. يقول فيها إنَّه سيغادر لندن اليوم. كوني مطمئنَّةً إلى أنَّني أشاطرك كلَّ مشاعرك، ولا تغضبي إذا قلت إنَّ تواصلنا، ولو برسالةٍ، سينتهي قريبًا. يجعلني ذلك تعيسةً. ولكنَّ السَّيِّد جونسون تعهَّد بأنَّه سيستقرُّ في الرِّيف بقيَّةَ حياته إن واصلتُ الاتِّصال بك، وأنت تعرفين أنَّ من المستحيل الخضوع لمثل هذا الحلِّ المتطرِّف بينما هناك بديلٌ آخر. لقد سمعتِ بالطَّبع أنَّ السَّيِّد والسَّيِّدة مينوارنغ سينفصلان، وأخشى أن تعود السَّيِّدة «م» إلينا مرَّةً أخرى؛ ولكنَّها ما تزال مغرمةً جدًّا بزوجها، وتقلق كثيرًا عليه لدرجة أنَّها قد لا تعيش طويلًا. جاءت الآنسة مينوارنغ لتوِّها لتكون برفقة خالتها، ويقولون إنَّها تعلن أنَّها ستحصل على السِّير جيمس مارتن قبل أن تغادر لندن مرَّةً أخرى. لو كنت مكانك، لحصلت عليه دون نقاشٍ لنفسي. كدت أنسى أن أعطيك رأيي في السَّيِّد دي كورسي؛ أنا مسرورةٌ حقًّا معه. أراه وسيمًا للغاية مثل مينوارنغ، وبمثل هذه الأسارير المنفرجة واللَّطيفة، لا يسع المرء إلَّا أن

يحبَّه من النَّظرة الأولى. وقد صار والسَّيِّد جونسون من أعزِّ الأصدقاء في العالم. وداعًا، عزيزتي سوزان، أتمنَّى ألَّا تسير الأمور بشكلٍ سيِّئ. يا لتلك الزِّيارة المشؤومة إلى لانغفورد! ولكنَّني أجرؤ على القول إنَّك فعلت كلَّ ما بوسعك، ولكن لا مثيل لقسوة حظِّك.

المخلصة لك،

أليسيا

(39)

من اللّيدي سوزان إلى السَّيِّدة جونسون

شارع سيمور الأعلى

عزيزتي أليسيا، ـ أسلِّمُ بضرورة افتراقنا. ففي ظلِّ هذه الظُّروف لا يمكنك التَّصرف بخلاف ذلك. ولكنَّ صداقتنا لا يمكن أن تتأثَّر بذلك، وفي أوقاتٍ أسعد من هذه، حين تصبحين مستقلَّةً مثلي، سنلتقي مرَّةً أخرى بالحميميَّة نفسها التي كانت بيننا من قبل. لهذا، سأنتظر ذلك بفارغ الصَّبر، وفي هذه الأثناء يمكنني أن أؤكِّد لك بأمانٍ أنَّني لم أكن مرتاحةً أبدًا، أو راضيةً عن نفسي وعن كلِّ شيءٍ، أكثر ممَّا أنا مرتاحةٌ وراضيةٌ الآن. زوجُكِ أكرهه، وريجينالد أحتقرُه، وأنا على يقينٍ من أنَّني لن أرى أيًّا منهما مرَّةً أخرى. أليس هذا سببًا للفرح؟ إنَّ مينوارنغ متاحٌ لي الآن أكثر ممَّا كان في أيِّ وقتٍ مضى. وحالما يصبح في حِلٍّ من زواجه، أشكُّ في أنَّني سأقاوم عرض الزَّواج الذي سيقدِّمه لي. ويمكنك، إن كانت زوجته تعيش معك، أن تعجِّلي من هذا الحدث. وسيكون من السَّهل عليك إبقاءُ مشاعرها العنيفة، التي سوف تدمِّرها، في حالة تهيُّجٍ مستمر. أعتمد على صداقتك لهذا الغرض. أنا راضيةٌ الآن لأنَّني لم أتمكَّن أبدًا من إقناع نفسي بالزَّواج من ريجينالد، وأنا مصمِّمةٌ بالقدر نفسه على أنَّ فريدريكا

لن تفعل ذلك أبدًا. غدًا، سأجلبها من تشرشِل، وأجعل ماريًّا مينوارنغ ترتجف من النَّتيجة. وستكون فريدريكا زوجةً للسِّير جيمس قبل أن تغادر منزلي. قد تتذمَّر، وقد يهتاج آل فيرنن، وأنا لا أهتمُّ بهما. لقد تعبت من إخضاع إرادتي لنزوات الآخرين، ومن التَّخلِّي عن رأيي الخاصِّ تقديرًا لأولئك الذين لا أدين لهم بأيِّ واجبٍ ولا أشعر تجاههم بأيِّ احترام. لقد تخلَّيت عن الكثير، وكان من السَّهل اقتيادي، ولكنَّ فريدريكا ستشعر من الآن فصاعدًا بالفرق. وداعاً، يا أعزَّ الأصدقاء؛ أرجو أن تكون نوبة النُّقرس التَّالية واعدةً أكثر! وأرجو أن تعدِّيني صديقتك التي لا تتغيَّر أبدًا،

س. فيرنن

(40)

من اللّيدي دي كورسي إلى السَّيِّدة فيرنن

عزيزتي كاثرين، ـ لديَّ أخبارٌ سارَّةٌ لك، ولو لم أرسل رسالتي هذا الصَّباح، لجنَّبتُكِ ربَّما الانزعاج من معرفة ذهاب ريجينالد إلى لندن، لأنَّه عاد. لقد عاد ريجينالد، ليس لطلب موافقتنا على زواجه باللّيدي سوزان، ولكن لإخبارنا بأنَّهما افترقا إلى الأبد. لقد وصل إلى المنزل قبل ساعةٍ فحسب، ولم أتمكَّن من معرفة التَّفاصيل، لأنَّه كان هادئًا تمامًا لدرجة أنَّني لم أجرؤ على طرح الأسئلة، ولكنَّني آمل أن نعرف كلَّ شيءٍ قريبًا. هذه هي السَّاعة الأكثر بهجةً التي منحنا إيَّاها منذ يوم ولادته. لا شيء نريده غير وجودك هنا؛ إنَّها رغبتنا ورجاؤنا أن تأتي إلينا في أقرب وقتٍ ممكن. أنتما مدينان لنا بزيارةٍ لأسابيع طويلة. آمل ألَّا يكون في الأمر ما هو غير ملائمٍ للسَّيِّد فيرنن؛ وأصلِّي لتحضرا معكما جميع أحفادي. وكذلك ابنة أخت زوجك العزيزة بالطَّبع؛ فأنا أتوق إلى رؤيتها. لقد كان شتاءً حزينًا وثقيلًا حتى الآن دون وجود ريجينالد ودون رؤية أحدٍ من تشرشِل. لم أجد الموسم بمثل هذه الكآبة من قبل؛ ولكنَّ هذا اللِّقاء السَّعيد سيشعرنا بالشَّباب مجدَّدًا. أفكِّر كثيرًا في فريدريكا، وحين يستعيد ريجينالد معنويَّاته الجيِّدة المعتادة (وأثق في أنَّ هذا سيكون قريبًا) سنحاول أن نسلبه قلبه مرَّةً أخرى، ولديَّ آمالٌ كبيرةٌ في رؤية يديهما متشابكتَين في القريب العاجل.

أمُّك الحنون،

ك. دي كورسي

(41)

من السَّيِّدة فيرنن إلى اللّيدي دي كورسي

تشرشِل

أمِّي العزيزة، ـ لقد فاجأتني رسالتك إلى أبعد الحدود! هل يمكن أن يكون صحيحًا أنَّهما انفصلا حقًّا ـ وإلى الأبد؟ سأطير فرحًا إن تجرَّأت على تصديق ذلك، ولكن بعد كلِّ ما رأيته، كيف يمكن لي أن أصدِّق ذلك؟ وريجينالد حقًّا معكما! دهشتي هي الأكبر لأنَّه في يوم الأربعاء، وهو يوم قدومه إلى باركلاندز، حظينا بزيارةٍ غير متوقَّعةٍ وغير مرحَّبٍ بها من اللّيدي سوزان، وكانت تفيض مرحًا وبشاشةً، وتبدو كما لو أنَّها ستتزوَّجه ما إن تعود إلى لندن أكثر ممَّا تبدو أنَّها انفصلت عنه إلى الأبد. بقيت ما يقرب من ساعتين، وكانت رقيقةً ولطيفةً كما كانت دائمًا، ولم تذكر حرفًا، أو تلميحًا، عن أيِّ خلافٍ أو جفاء. سألتها إن كانت قد رأت أخي بعد وصوله إلى البلدة، لا لشكوكٍ لديَّ في حقيقة ذلك، كما قد تفترضي، ولكن لرؤية كيف ستكون ردَّة فعلها فحسب. أجابت على الفور، دون أيِّ ارتباكٍ، أنَّه كان لطيفًا بما يكفي لدعوتها يوم الاثنين؛ ولكنَّها تظنُّ أنَّه عاد بالفعل إلى المنزل، وهو ما كنتُ بعيدةً جدًّا عن تصديقه. دعوتك الكريمة مقبولةٌ من طرفنا بكلِّ سرور، وفي يوم الخميس القادم سنكون وصغارنا

معكم. أدعو السَّماء ألَّا يكون ريجينالد قد عاد مرَّةً أخرى إلى لندن في ذلك الوقت! وددتُ لو كان بإمكاننا إحضار فريدريكا العزيزة أيضًا، ولكن يؤسفني القول إنَّ الهدف من زيارة والدتها لنا كان يتمثَّل في نقلها بعيدًا، وبقدر ما أحزنَ ذلك الفتاةَ المسكينة، كان من المستحيل إبقاؤها. لم أكن راغبةً مطلقًا في السَّماح لها بالرَّحيل، وكذلك عمُّها. فعلنا كلَّ ما بوسعنا؛ ولكنَّ اللّيدي سوزان أعلنت أنَّها بينما هي في لندن لعدَّة أشهرٍ لترتيب أمورها، لن تكون مرتاحةً إن لم تكن ابنتها معها، من أجل المعلِّمات، وما إلى هنالك. من المؤكَّد أنَّ أسلوبها كان لطيفًا للغاية ومحقًّا، والسَّيِّد فيرنن يعتقد أنَّ فريدريكا ستعامَل من الآن فصاعدًا بمحبَّة. ليتني أعتقد ذلك أيضًا. كاد قلب الفتاة المسكينة ينفطر من مغادرتها لنا. لقد كلَّفتها أن تكتب إليَّ كثيرًا، وأن تتذكَّر إن مرَّت بحالةٍ من الضِّيق، أنَّنا أصدقاؤها دائمًا. لقد دبَّرتُ أمرَ رؤيتها وحدها لأقول كلَّ هذا، وآمل أن تكون كلماتي قد جعلتها أكثر راحة؛ ولكنَّني لن أرتاح حتى أتمكَّن من الذَّهاب إلى المدينة والوقوف على أمورها بنفسي. تمنَّيت لو كان للزَّواج الذي تتوقَّعينه في ختام رسالتك أملٌ أفضل ممَّا يلوح لنا الآن. ففي الوقت الحاضر، لا أرى ذلك مرجَّحًا جدًّا،

ابنتُك المحبَّة دومًا،

كاثرين فيرنن

بسبب اجتماع بعض الأطراف، وافتراق أطرافٍ أخرى، والتَّكلفة الكبيرة لمكتب البريد، لم تتواصل هذه المراسلات لفترةٍ أطول. ولا يمكن نيل فائدةٍ كبيرةٍ في هذا الشَّأن من المراسلات بين السَّيِّدة فيرنن وابنة سِلْفَتها؛ فبالنِّسبة إلى الأولى، سرعان ما أدركت، من أسلوب رسائل فريدريكا، أنَّها كانت تكتب تحت نظر والدتها! ولذلك، أجَّلت جميع الاستفسارات الدَّقيقة إلى أن تتمكَّن من مقابلتها شخصيًّا في لندن، وتوقَّفت عن الكتابة بإسهابٍ أو بكثرةٍ. في هذه الأثناء، بعد أن علمت ما يكفي من صراحة شقيقها بما مرَّ بينه وبين اللّيدي سوزان وجعله يُسقط الأخيرة أكثر من عينه، صارت أكثر تلهُّفًا نسبيًّا لإبعاد فريدريكا عن مثل هذه الأمِّ ووضْعِها تحت رعايتها الخاصَّة؛ وعلى الرَّغم من قلَّة الأمل في النَّجاح، كانت مصمِّمةً على عدم توفير أيِّ جهدٍ من شأنها أن تحصل به على موافقة سِلْفَتها. جعلها قلقها بشأن هذا الموضوع تلحُّ على زيارةٍ فوريَّةٍ إلى لندن. والسَّيِّد فيرنن، الذي كما تبيَّن بالفعل، كان يعيش ليفعل ما تطلبه منه فحسب، سرعان ما وجد بعض الأعمال التِّجاريَّة المريحة لينشغل بها هناك. وبقلبٍ مهمومٍ، قامت السَّيِّدة فيرنن، بعد وصولها إلى المدينة بوقتٍ قصيرٍ، بزيارة اللّيدي سوزان التي قابلتها بلطفٍ وابتهاجٍ كاد يجعلها تولِّي عنها مذعورةً. لا ذكر لريجينالد، ولا إحساس بالذَّنب، ولا حتى علامةٍ واحدةٍ تدلُّ على الارتباك. كانت في حالةٍ معنويَّةٍ ممتازةٍ، وبدت متحمِّسةً في إظهار اهتمامها بنسيبها وسِلْفَتها على الفور

للُطفِهما، وفي إبداء سرورها بلقائهما. لم تكن فريدريكا كذلك أكثر توتُّرًا من اللّيدي سوزان. السُّلوك المنضبط نفسه، والمظهر الخجول نفسه في حضور والدتها كما كانت في السَّابق، أكَّدا لزوجة عمِّها أنَّ وضعها غير مريح، وزاداها إصرارًا على تغييره. ومع ذلك، لم تظهر أيُّ قسوةٍ من جانب اللّيدي سوزان. وانتهى تمامًا الاضطهاد في موضوع السِّير جيمس؛ فاسمه لم يُذكَر إلَّا للقول إنَّه ليس في لندن؛ وبالفعل، في كلِّ حديثها، لم تكن مهتمَّةً سوى بسعادة وتقدُّم ابنتها، معترفةً بفرحٍ وامتنانٍ بأنَّ فريدريكا تصبح يومًا بعد يومٍ أفضل ممَّا يمكن لأيِّ أمٍّ أن ترغب فيه. لم تكن اللّيدي فيرنن، المتفاجئة والمذهولة، تعرف ماذا بإمكانها أن تتوقَّع، ودون أيِّ تغييرٍ في خططها، لم تخش سوى وجود صعوبةٍ أكبر في تحقيقها. جاء الأمل الأوَّل في أنَّ الأمور تسير نحو الأفضل من سؤال اللّيدي سوزان لها إن كانت تعتقد أنَّ فريدريكا تبدو بخيرٍ كما كانت في تشرشِل، لأنَّه كان عليها أن تعترف لنفسها في بعض الأحيان بوجود شكوكٍ تساورها من ملاءمة لندن تمامًا للفتاة. فاقترحت اللّيدي فيرنن، مُذْكِيةً ذلك الشَّكَّ، عودةَ الفتاة في الحال معهم إلى الرِّيف. لم تكن اللّيدي سوزان قادرةً على التَّعبير عن مدى امتنانها لهذا اللُّطف، ولكنَّها لم تكن تستطيع بعد، ولأسبابٍ مختلفةٍ، التَّفكير في ابتعاد ابنتها عنها؛ ومع أنَّ خططها الخاصَّة لم تتحدَّد بالكامل بعد، إلَّا أنَّها كانت على يقينٍ من أنَّه سيكون بوسعها بعد فترةٍ ما أن تأخذ فريدريكا إلى البلدة بنفسها، واختتمت الحديث بالامتناع كلِّيًّا عن الموافقة على مثل هذا الاهتمام غير المسبوق. ومع ذلك، ثابرت اللّيدي فيرنن على عرضها، رغم

مواصلة اللّيدي سوزان الرَّفض، ولكنَّ مقاومتها ما لبثت خلال أيَّامٍ قليلةٍ أن بدت أقلَّ حدَّةً إلى حدٍّ ما. ثمَّ قرَّر الرُّعب من الإنفلونزا لحسن الحظِّ ما لم يكن ليُقرَّر بهذه السُّرعة. فاستيقظت مخاوف اللّيدي سوزان الأموميَّة ولم تعد تفكِّر في أيِّ شيءٍ عدا إبعاد فريدريكا عن خطر التَّعرُّض للعدوى. ومن بين كلِّ الكوارث في العالم، كان أخشى ما تخشاه هو أثر الأنفلونزا على صحَّة ابنتها!

عادت فريدريكا إلى تشرشِل مع عمِّها وزوجته. وبعد ثلاثة أسابيع، أعلنت اللّيدي سوزان أنَّها تزوَّجت السِّير جيمس مارتن. حينئذٍ فحسب اقتنعت اللّيدي فيرنن بما اشتبهت به من قبل، بأنَّها ربَّما جنَّبت نفسها كلَّ متاعب الإلحاح على انتقال فريدريكا معها والذي كانت اللّيدي سوزان قد حسمته دون شكٍّ منذ البداية. كانت زيارة فريدريكا قد حُدِّدت بستَّة أسابيع، ولكنَّ والدتها، مع أنَّها طلبت عودتها في رسالةٍ أو رسالتين لطيفتين، كانت مستعدَّةً تمامًا للموافقة على تمديد إقامتها، وبعد شهرين توقَّفت عن الكتابة عن افتقادها، ثمَّ بعد شهرين آخرين توقَّفت عن الكتابة كلِّيًّا لها. لذلك، بقيت فريدريكا مع عائلة عمِّها وزوجته إلى أن تمكَّنت، بمعسول ولطيف الكلمات، من استمالة عواطف ريجينالد دي كورسي نحوها، الأمر الذي يعني بشكلٍ معقولٍ الانتظار اثني عشر شهرًا لإعطائه الوقت الكافي للتَّغلُّب على حبِّه لأمِّها، ولتخلِّيه عن أيِّ علاقاتٍ مستقبليَّةٍ وعن إبغاض الجنس اللَّطيف. ربما كانت فترة ثلاثة أشهرٍ كافيةً لذلك عمومًا، ولكنَّ دوام مشاعر ريجينالد لم يكن أقلَّ من اتِّقادها.

أمَّا عمَّا إذا كانت اللّيدي سوزان سعيدةً أو غير سعيدةٍ مع زوجها الثَّاني، فلا أدري كيف يمكن التَّأكُّد من ذلك. فمن يمكنه الوثوق بتأكيداتها، سواءٌ أكانت نفيًا أم إيجابًا؟ على النَّاس أن يحكموا بناءً على الاحتمالات. لم يكن هناك شيءٌ ضدَّها سوى زوجها وضميرها. ويبدو أنَّ السِّير جيمس قد نال نصيبًا أقسى بكثيرٍ مما كانت تستحقُّه سذاجته الخالصة؛ لذلك أتركه لكلِّ الشَّفقة التي يمكن لأيِّ شخصٍ أن يمنحه إيَّاها. أمَّا بالنِّسبة إليَّ، فأعترف بأنَّه لا يمكنني سوى أن أشفق على الآنسة مينوارنغ فحسب؛ هذه التي بعد مجيئها إلى لندن وإيقاع نفسها في أحبولة شراء ثيابٍ بثمنٍ سيفقرها لمدَّة عامين بهدف الفوز بقلبه، تحايلت عليها امرأةٌ تكبرها بعشر سنوات.

تمَّت

Telegram @t_pdf